الفصل السابع
مائتا سنة من تاريخ الخزر

قادنا البحث حول تهود الخزر، إلى الحديث عن أحداث القرن العاشر، ويتوجب علينا أن نستأنف الآن سرد أخبار الأحداث شروعاً من سنة 119هـ/ 737م، وهو التاريخ الذي شهد حملة مروان بن محمد، حسبما روي في نهاية الفصل الرابع، لا بل أن نحاول حتى العودة إلى بعض الحوادث ذات التاريخ الأبكر.

فلقد رأينا أنه كان هنالك صلات بين الخزر والبيزنطيين في حوالي سنة 627م في ظل حكم هرقل، ويتوقف الكتاب البيزنطيون منذ ذلك التاريخ عن ذكر الخزر حتى أيام جستنيان الثاني بن قسطنطين الرابع، وفي سنة 695م بعد حكم عشر سنوات، جعل جستنيان الثاني نفسه فيها غير محمول من قبل رعيته، فخلع وشوه ونفي إلى القرم[1]، ويبدو أنه سكن في كيرسون والتزم الهدوء لعدة سنوات[2]، ثم ما لبث أن سبب ذعراً شديداً بإعلانه على الملأ إنه ينوي استرداد عرشه الامبراطوري، فقد غادر كيرسون إلى دوروس Doros (داراس Daras) عاصمة قوط القرم، وطلب مقابلة خاقان الخزر، واستقبل الخاقان الامبراطور المعزول بترحاب كبير، وأصغى لما قاله وزوجه أخته[3].

---

(1) ثيوفانس ـ ط. بون: 566. نقفور ـ ط بون: 44..

(2) ربما حتى سنة 704. انظر بري ـ الامبراطورية الرومانية المتأخرة: 2/ 360.

(3) ثيوفانس: 571. نقفور: 46.

ويبدو أن اسم خاقان الخزر كان بوسير Busir[1]، وقيل إن اسم أخته كان ثيودورا، وليس هنالك ما يفيد فيما إذا كانت مسيحية قبل الزواج منها، ويرجح أن اسم ثيودورا قد حملته بعد تعميدها[2]، إما منذ تاريخ زواجها أو منذ عودة زوجها إلى العرش، فلعل جستنيان الثاني اختار لها هذا الاسم تيمناً باسم ثيودورا الملكة المشهورة، زوجة سميه جستنيان الأول[3]، وتحول جستنيان - بإذن من الخاقان - إلى فاناغوريا Phanagoria[4] - واسمها الآن تامان Taman - على الشاطئ الشرقي لمضيق كيرتش Kertich.

وكان الامبراطور في تلك الآونة (تايبيروس الثالث)، وقد سمع بما كان يحدث، لذا بعث برسائل متوالية إلى الخاقان عارضاً عليه مكافأة كبيرة مقابل جستنيان حياً كان أم ميتاً، وأبدى الخاقان استعداده للتضحية بحليفه الجديد، فقام بإرسال بعض القوات إلى فاناغوريا بحجة تزويد جستنيان بحرس شخصي، وأصدر في الوقت نفسه تعليماته إلى نائبه هناك وهو باباتزس الخزري Papatzes، وإلى بلغتيزس Balgitzes[5]، وإلى بوسبورس عبر المضيق، بوجوب إزاحة الإمبراطور السالف من الطريق، ولقد أفشي خبر المؤامرة إلى ثيودورا من قبل واحد من حاشية أخيها فقامت بالحال بإخبار زوجها، وطلب جستنيان رؤية باباتزس وكان على وئام معه وعندما انفرد به خنقه بوتر، ثم ما لبث أن تخلص من بلغيتزس بالطريقة نفسها، وإثر ذلك أرسل ثيودورا إلى أخيها[6]، وتوجه هو إلى كيرسون على متن قارب صيد حيث التحق به عدد من أصدقائه.

---

(1) بوسيروس (انظر الحاشية 12 - التالية) أو إيبوزيروس (فيرنادسكي - روسيا القديمة: 251) زاجا تشكوسكي حيث فضل «بزير»، وقارن برتساك اسم بزير أرسلان خان وهو قرا - خان من القرن التاسع (در - إسلام: 29/ 99).

(2) مثل حالة إيريني زوجة قسطنطين الخامس - انظر مايلي.

(3) كذلك في الامبراطورية الرومانية المتأخرة لبري: 2/ 358.

(4) وإلا «تمتارخا» (قسطنطين بروفي - الإدارة الامبراطورية: 42). وصفت «كطرخانية على الخليج» من قبل أ. كريمسكي (اقتباس برتساك - المصدر نفسه). تموتوروكان أو تموتورا كان (المؤرخ الروسي - فصل: 52). سامكارس (ابن الفقيه: 271 - مرقوارت: 163. رد يوسف - النص الطويل - وثيقة كمبردج راجع الفصل السادس - الحاشية 132) انظر ثيوفانس: 545.

(5) يقارن هذا الاسم بالعادة مع «بولش - تسي» في وثيقة كمبردج. وفضل زاجاتشكو - سكي قراءتها: بولغي (بلغي) تسي، يلتشي - بمعنى حاكم (اقتباس برتساك - المصدر نفسه).

(6) نقفور (47) حيث تحدث عن أبيها.

إن الخطوات التالية التي اتخذها جستنيان لاسترداد عرشه لا تهمنا هنا، المهم هو أن المسعودي قدم خلاصة لأخبار هذه الأحداث وما تلاها وقال: إن جستنيان لم يرق له ما رآه بين الخزر، وتحول إلى طلب المساعدة من «طرفلا» ملك برجان[1] (تربيل ملك البلغار).

وفي سنة 705 عندما شعر جستنيان بأن أموره قد توطدت، بعث بأسطول ليجلب له زوجته، وقام الخاقان الذي اعتقد أن ما فات مات، فكتب رسالة إلى الإمبراطور نقده فيها لأنه لم يكتف بإرسال سفينتين أو ثلاث بدلاً عن الأسطول (الذي خسر عدداً من سفنه أثناء الترحال بسبب العواصف)، وكأنه يريد استرداد زوجته بالقوة[2]، وجلبت هذه الرسالة إلى الإمبراطور أخبار ولادة ابن ذكر له في بلاد الخزر، وسافرت ثيودورا وطفلها نحو العاصمة البيزنطية برفقة رجل اسمه ثيوفيلاكت Theophylact الحاجب، وهناك جرى تتويجها أوغسطه، وتتويج الطفل أوغسطس، وأقيم للسيدة الخزرية نصب إلى جانب تمثال زوجها، ولقد قيل غالباً ما جلس الخاقان هناك عندما كان يقوم بزيارة المدينة[3].

وشغل خاقان الخزر في الأحداث التي تقدمت على سقوط جستنيان النهائي، دوراً هاماً، لا بل دوراً حاسماً، فلقد احتفظ الإمبراطور بمشاعر عدائية شديدة تجاه المعاملة التي لقيها من سكان القرم، لذا قام سنة 710 بتجهيز أسطول عملاق حمل على ظهره مائة ألف مقاتل، وكانت الأوامر الصادر إلى قادة الحملة تقضي بوضع السيف في رقاب أهل: كيرسون، وبوسبورس، وبعض الأماكن الأخرى[4]، ورافق الحملة رجلان بارزان هما القائد الياس وآخر اسمه بردانس، وهو رجل سلف له أن نفي من قبل تايبيروس الثالث، ثم أعاده جستنيان، وكان هو الوالي المسمى من قبل الإمبراطور لولاية كيرسون بعد

---

(1) التنبيه: 164.

(2) ثيوفانس: 575.

(3) كذلك المؤرخ المجهول من حوالي سنة 750 وذلك تبعاً لكرومباشر Kroombacher، في بندري Imperium orientale. باريس 1711: 1/ 3/ 90 ـ كودينوس. ط. بون: 166. وظهر اسم الخاقان «بوسيرو ـ غلياباروا» وقد نقل زاجاتشكوسكي الشطر الثاني من هذا الإسم إلى «يلبار ـ جلبار» (على سبيل المثال: الثقافة: 4) وأخطأ بروتزكوس خطأ جسيماً في قوله كان اسم ابنة الخاقان «بوسير ـ غلوار» ومعناه «جامعة الورود» (الموسوعة اليهودية ـ مادة خزر).

(4) ثيوفانس: 578.

الاستيلاء عليها، هذا ويدلل وجود بردانس مع الحملة على شكوك لدى جستنيان، وليس حظوة خاصة[1].

وهذه الرواية الواردة في مصادرنا ليست مقنعة بشكلها العام، فقد كان الهدف الرسمي المعلن للحملة إنزال العقوبة بمدن القرم، وتنصيب وال في كيرسون، لكن هذا الهدف كان من الممكن الوصول إليه بقوة أقل بكثير مما أرسل، فهل كان هنالك تهديد خطير صادر عن الخاقان؟ فلقد سلف ولاحظنا وجود مسؤولين خزر رسميين في بوسبورس[2]، وكذلك في فاناغوريا، كما كان في شيرسون شخص اسمه تودون Tudun كان والياً عليها وممثلاً للخاقان[3].

ولاشك أن تودون قد أرسل إلى شيرسون بعدما غادرها جستنيان، وربما كان ذلك سنة 704م، ولو لم يكن كذلك لأمكننا أن نفترض أنه كان من غير الضروري بالنسبة للإمبراطور الذهاب إلى دورس قبل الاتصال بالخزر، وهنالك ما يكفي من البينات لنقول بأن المدينتين الأهم في القرم كانتا جزئياً تحت سيطرة الخزر[4]، ولعل هذا هو السبب لإرسال

---

(1) انظر نقفور: 50.

(2) تبعاً لبري (الإمبراطورية الرومانية المتأخرة: 2/ 358 ـ الحاشية: 1) جرى الاستيلاء على بوسبورس من قبل الخزر في القرن السادس، وهذا التاريخ مبكر جداً، والنص الذي كان في ذهن بري هـ (ماندر: 404) حيث قال: هوجمت بوسبورس من قبل الأتراك الغربيين بالتعاون مع الايغور (المصدر نفسه 399) في حوالي سنة 575، وهذا أمر سلف وأشير إليه في الفصل الثاني.

(3) ثيوفانس: 578. نقفور: 51. وتودون لقب وليس اسماً شخصياً كما عدّه المحققون: كلاسن وبيكر وبري (الامبراطورية الرومانية المتأخرة: 2/ 363 ـ 364). وذكر فازلييف محاولة اشتقاق من الكلمة الصينية تودونج «حاكم مقاطعة»، واقترح أن الخزر لابد قد استخدموا هذا اللقب في وقت سحيق، عندما كانوا قبائل بدوية متجولة في آسيا الصغرى وكانوا على اتصال مع الصينيين، ويظهر الـ «تودون» بمثابة حاكم معين من قبل سلطات الخزر المركزية متميزاً عن الـ «إلتبير»، أو أمير وراثي نصف مستقل، كما الحال بين البلغار، لكن النظام لم يكن كما يبدو راسخ القواعد، وتبعاً لابن رسته (140) كان البرادس، أو البرطاس، من رعايا ملك الخزر وامتلكوا قوة من الفرسان قدرها عشرة آلاف رجل، ولم يكن لهم رئيس أي لا تودون ولا إلتبير، بل طبق في كل منطقة واحد أو اثنان من الشيوخ النظام والقانون.

(4) انظر بري ـ الامبراطورية الرومانية المتأخرة: 2/ 395.

حملة جستنيان الكبيرة لاسترداد الأراضي المعرضة لخطر فقدان الإمبراطورية لها، أو أنها انتقلت بالفعل إلى أيدي الخزر.

ومهما يكن من أمر جاءت المحصلات مأساوية بالنسبة لجستنيان، فلقد استولت الحملة البيزنطية على كيرسون دونما مقاومة، وبعدما استبقي بعض الأطفال وبعض الأعيان بما فيهم تودون واليها الخزري، سيق أهل المدينة إلى ميتة تعيسة، ولم يرض ما نفذ، وما لم ينفذ جستنيان، فأصدر أوامره بعودة الحملة مع الأسرى فوراً إلى بيزنطة، ومع أن الوقت كان متأخراً ـ شهر تشرين أول ـ وجد قادة الحملة أن لا مناص من الطاعة، فأقلعوا عائدين، فصدفهم في طريقهم عاصف أغرق عدداً كبيراً من السفن، وأودى بحياة ما مقداره / 73000/ نسمة، ودلت ردات فعل جستنيان تجاه هذه الكارثة أنه كان مختل العقل، فقد عبر عن عدم رضاه حيال الأخبار فقط، وأعد العدة لإرسال حملة أخرى[1] تتولى اجتثاث مدينة شيرسون من الجذور، كما قام بإعفاء نفسه من الإشراف على تعذيب أعيان مدينة شيرسون وحرقهم أو تغريقهم[2]، وقد نفذ هذا في القرم، لكن ليس بالضرورة حسب أوامره.

وعندما وصلت أخبار ما ينبغي توقعه إلى القرم، قرر السكان المقاومة حتى النهاية، فأعدوا العدة للدفاع وطلبوا المساعدة من الخزر، وقام إلياس والي شيرسون وبردانس بإعلان خروجهما على جستنيان، ووصلت أخبار ذلك إلى بيزنطية، ولاحظ جستنيان ـ لكن بعد فوات الأوان ـ مدى خطورة الوضع، فأرسل بعثة برئاسة اثنين من كبار شخصيات بيزنطة، وكلفا بإعادة الأمور إلى نصابها قدر الإمكان في شيرسون ولإعادة تسكين الذين مازالوا بين الأحياء، ورافق بعض هؤلاء بما فيهم تودون الخزري البعثة، وكلف الرسل بتقديم الاعتذار إلى الخاقان (على أشياء كثيرة، من بينها أخذ تودون إلى بيزنطة) كما كلفا بالعودة ومعهما الياس، وبردانس اللذان كان جستنيان غاضباً عليهما بشدة، وكان هذا البرنامج محال التنفيذ، وفي البداية رفض الإصغاء إلى مطالب الرسل، لكن ما لبث في

---

(1) هكذا يبدو كل من نقفور وثيوفانس يقولان إن الأسطول أرسل بالفعل.

(2) من المؤكد أن بري (الامبراطورية الرومانية المتأخرة) مخطئ في قوله كذلك.
انظر نقفور: 50 ـ 51. وهناك بعض الكلمات الهامة قد حذفت من نقفور.

اليوم التالي أن سمح للرسولين البارزين بدخول المدينة حيث عرضا على السيف، وكان هنالك قوة قوامها ثلاثمائة جندي قد قدمت برفقة البعثة، وقد سلم هؤلاء بما في ذلك تودون حاكم شيرسون السالف إلى الخزر، وبعث بهم إلى الخاقان، وفي الطريق توفي تودون، فجرى على الفور ذبح الثلاثمائة أسير بيزنطي على شرفه، أو بالحري ضحي بهم ليرافقوه في رحلته النهائية[1].

وبعدما أقدم الثوار على قتل رسل جستنيان كان من المنطقي إقدامهم على اختيار واحد منهم امبراطوراً، وهذا ما فعلوه الآن، فقد جرى اختيار برداس الذي اختار لنفسه لقب فيلبكوس، وعندما سمع جستنيان بما حدث انتقم بشكل فظيع من أسرة الياس التي كانت موجودة في بيزنطة، وبعث بأسطول مجهز بجميع المواد التي كانت لازمة للحصار في العصور الوسطى، وكان قائد الحملة اسمه موروس، وبعدما وصل هذا القائد مع حملته إلى شيرسون شرع في تدمير دفاعاتها، وما أن أكمل تدمير برجين من أبراج سورها حتى وصلت نجدات خزرية سببت خللاً في ميزان القوى المتحاربة.

ولم يكن برداس - أو بالحري فيلبكوس كما ينبغي أن يدعى من الآن فصاعداً - واثقاً من نتائج القتال، لهذا اغتنم الفرصة وانسحب نحو بلاط ملك الخزر، ووجد موروس لا يملك من القوة ما فيه الكفاية لحسم الموقف، وكان يخشى أن يعود مخفقاً إلى جستنيان، لذلك قرر الاعتراف بفيلبكوس امبراطوراً، وتبع هذا تأييد رجاله له، لكن الخاقان رفض تسليم ضيفه حتى لأبناء وطنه الذين أعلنوا عن ولائهم له، وأصر على أخذ عهود موثقة منهم بعدم خيانته، كما استخرج منهم مبلغاً من المال ضماناً، أو فدية لفيلبكوس، ودفع البيزنطيون ما طلبه وعندما حسمت جميع المصاعب التي أثارها الخاقان، استقبل فيلبكوس من قبل أتباعه الجدد، ولم تمض سوى أشهر حتى أقام نفسه امبراطوراً في القسطنطينية، وغدا جستنيان وولده في عداد الأموات[2].

---

(1) مورست هذه المذابح بين السيزيين لدى هيرودوت ولدى الهون، وسواهم - انظر زكي - وليدي - ابن فضلان: 138، 237.

(2) ثيوفانس: 583.

ونرى في مجريات هذه الأحداث أن الخزر كانوا يقفون بثقل كبير على مسرح الأحداث في القرم وذلك إن لم نقل أنهم تحكموا بالموقف، فبعدما تخلوا عن جستنيان جعلوا سقوطه حتمي الوقوع، كما أنه ما كان بإمكان بردانس (فيلبكوس) البقاء بدون دعم الخزر له، وبناء عليه ليس من الغلو بمكان القول: كان للخاقان في هذه المرحلة من القوة ما مكنه من منح الامبراطورية البيزنطية حاكماً جديداً، وكان التاريخ الآن سنة 711م، وكان الخزر قد ظهروا على شواطئ البحر الأسود ليس قبل ذلك بزمن طويل[1]، وبعد سنوات قليلة من هذا كانوا على استعداد للمبادرة بالهجوم على المسلمين (كما سلف لنا ووصفنا).

ومن المفيد أن نلاحظ أن جستنيان الثاني قد قام قبل حادثة نفيه وما تلاها من اتصالات بالخزر، بالسماح لمجمع ترولان Trullan، بإصدار قرار يقضي «باجتثاث المعارضة اليهودية»[2]، وعندما أصبح ليو الإيزوري امبراطوراً كان واحداً من الإجراءات التي أقدم عليها، ربما في سنة 720م[3] التحويل الإجباري لجميع اليهود إلى المسيحية، ومن المتوجب ربط أعمال التنكيل هذه التي لحقت باليهود بتبني اليهودية من قبل الخزر، كما يشير المسعودي[4]، وبعد مضي بعض الوقت زوج ليو الإيزوري ابنه قسطنطين من أميرة خزرية، وقد أعطي تاريخ 732م لهذا الحادث أي بعد سنة أو سنتين من قيام الهجوم الخزري الكبير ضد ديار الإسلام، الذي ورد ذكره في المصادر العبرية والعربية.

ومن الصعب القول إن هذه الأحداث غير مترابطة[5]، ولم يذكر أن خطيبة قسطنيطين لم تكن بالأصل مسيحية، ويبدو أن اسمها كان شيشل[6] Chichal وقد جرى

---

(1) انظر الفصل الثالث

(2) بري الامبراطورية الرومانية المتأخرة: 2/ 326 ـ 327، 388. بري،

(3) المصدر نفسه: 2/ 431.

(4) انظر الفصل الخامس.

(5) لاحظ بري (الامبراطورية الرومانية المبكرة: 407) أن الأميرة الخزرية التي تزوجت قسطنطين الخامس في سنة 732م، لابد أنها كانت ابنة أو أخت الخاقان الذي هزمه مروان، وأضاف قوله: «وكانت هنالك في تلك الآونة ظروف قامت بتحويل الخزر إلى الاتجاه المعاكس للمسيح ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذه هي الحقبة بالذات التي تشير بينات رسالة يوسف إليها، وتجعلها موعد التحويل إلى اليهودية» (بري، المصدر نفسه) أنظر أيضاً الفصل الرابع.

(6) شرح العلماء الذين عملوا بكتاب قسطنطين بورفي (ط. بون: 22) كلمة Tzizakion التي هي اسم أطلق على نوع من الثياب الرسمية، على أنها كلمة من أصل خزري، أخذت من اسم الامبراطورة =

تعميدها وقت زواجها، وأعيد تسميتها بإيرين، وقد أخبرنا عنها «نظراً لحفظها الكلمات والحروف المقدسة أصبحت متميزة بتقاها»[1]، وينبغي أن تعني عبارة «الكلمات والحروف المقدسة» أكثر من اللغة الإغريقية، ولعل الذي عني بذلك هو الكتاب المقدس بالعبرية.

ولو صح أن الأميرة حملت مثل هذه المعارف فمن المرغوب به الاعتقاد أنها تعلمت ذلك في بلاد الخزر، وهنالك وصف لزوجها لدى زوناراس Zonaras كاتب القرن الثاني عشر، الذي وسمه بأنه «لم يكن مسيحياً ولا هنلستياً (أي وثنياً)، ولا يهودياً، بل مزيجاً من عدم التقوى»[2]، ومن الممكن أن زوناراس رأى في قسطنطين نوعاً من اليهودية، مع الإشارة إلى زوجته الخزرية، وتبقى هذه الاحتمالات واهية، لكن لعلها تؤكد وجود اليهودية بين الخزر أيام زواج إيرين وقسطنطين، هذا ويلاحظ أنه لا يوجد ما يشير في المصادر العربية إلى أن الخاقان كان يهودياً عندما تولى فقيهان مسلمان سنة 737، تعليمه الإسلام[3].

وحكم قسطنطين بدءاً من سنة 740 (قسطنطين الخامس) وقد فقد زوجته في حوالي سنة 747، وظل أرملاً لمدة ثلاث سنوات حسبما أشار ابن العبري[4]، وولدت إيرين لزوجها ولده الذي أصبح امبراطوراً باسم ليو الرابع ولقب بالخزري وهو اللقب الذي حصل عليه من أمه، وقد حكم من 775 حتى 780م، ونجد في كتاب «الإدارة الامبراطورية» نصاً يتحدث عن امبراطور اسمه ليو «اتخذ زوجة من بلاد الخزر» و«عقد حلف مصاهرة مع خاقان الخزر»[5]، وليس هناك في حدود المعروف امبراطور اسمه ليو قد تزوج من أميرة خزرية، كما لم يعزم ليو الإيزوري الذي عمل لصالح ابنه قسطنطين على ذلك، بل المقصود هو ليو الرابع[6]، الذي تزوج في الحقيقة فتاة أثينية.

= الخزرية التي أدرجت استعمالها، وتبعاً لريسكي (قسطنطين بورفي. ط. بون 2/ 126، 127) كانت الامبراطورة الخزرية هذه هي إيرين أم ليون الخزري، ولربما كان اسمها أيضاً ثيودورا.

(1) ثيوفانس، ط. بون: 631.

(2) ط. بون: 3/ 265.

(3) الفصل الرابع.

(4) المؤرخ السرياني، ترجمة بدج: 113.

(5) ط. بون: 83، 87.

(6) يبدو أن هذا مؤكداً من الكلمة التي تصف موته، المصدر نفسه: 84. انظر بري الامبراطورية الرومانية المتأخرة: 2/ 479، الحاشية.

ومن المدهش أن نجد أن هذه الرسالة المصنفة من قبل الامبراطور بورفي - جنتوس مثل هذا التمازج والوهم في إثبات الحقائق[1]، ونستخرج من النص ذاته أنه حدث في بعض المناسبات أن أقدمت السلطات البيزنطية على منح سادة الخزر خلعاً نفيسة، وأكاليل، وتيجاناً، وقد وصف شعب الخزر هنا بمثابة واحد من «شعوب الشمال الخائنة الكافرة» ويبدو من الطبيعي أن يقدم ليو الرابع الذي قيل[2] إنه كان يبدد موارد الدولة بصورة شخصية، على إبداء الرغبة في منح الهدايا للخزر من أقربائه.

وعلينا الآن أن نعود إلى مساق رواية الأخبار، من حيث تركناها في الفصل الرابع، فلقد انتهت الحرب الخزرية - العربية الثانية بهزيمة الخاقان، وأنه تبعاً للمصادر العربية - قد أرغم على التحول إلى الإسلام، ومكنت الأحداث التي شغلت الخلافة قبل وصول مروان ابن محمد إلى الحكم وبعده، مكنت الخزر من التعافي، وعندما تمكن العباسيون سنة 134/ 751م من توطيد أقدامهم في إقليم الهند النائي، وألحقت الهزيمة بممثل الحكم السالف واسمه منصور بن جمهور وقتل، وعندما لم يستطع خليفة منصور الصمود في وجه التحدي العباسي، هرب إلى بلاد الخزر، ومعه حريم منصور بن جمهور وأمواله[3]، ومن الواضح أن هذا يدل على أن دولة الخزر كانت مستقلة في تلك الآونة.

وتولى سنة 141هـ/ 758م يزيد بن أسيد السلمي أرمينية للمنصور العباسي، وجرى من قبله إرسال شحنة إلى ممر داريل، ووصلته فيما بعد تعليمات من الخليفة تشجعه على الدخول في حلف مصاهرة مع ملك بلاد الخزر[4]، ومن المنطقي أن نفترض أنه ساد الشعور من جديد بأن الخزر أعداء خطرون، وهذا أمر برهنت الحوادث التالية على أنه كان حقيقة.

---

(1) عقب جيبون على زواج ليو، أو بالحري على زواج أبيه قسطنطين الرابع من ابنة ملك الخزر، ولعل تغاضي عن عمد عن ذكر اسم قسطنطين الصحيح (الانحدار والسقوط: 53) ولم يكن جيبون متنوراً بشكل عام حول هذه العلاقات الخزرية، وعنده كان عليه ذكر قسطنطين الخامس، وتحدث في مكان آخر عن قسطنطين، وقد «اختار زوجة بربرية» (48) وأنه لم ير تلك العروس لأنه كان طفلاً في الثالثة عشرة من عمره وأبوه هو الذي تولى تدبير الموضوع برمته. (انظر ثيوفانس: 614، 631).

(2) المصدر نفسه: 83.

(3) الطبري: 3/ 80.

(4) اليعقوبي: 2/ 46. البلاذري: 210، وكان ابناً لأمير عند مروان في سنة 737.

وأجرى يزيد بن أسيد جميع الاستعدادات اللازمة لتنفيذ أوامر مولاه، ولدينا رواية تصف الموكب الرائع الذي جلب الأميرة الخزرية[1] جنوباً عبر ممرات جبال القوقاز، فقد رافقها عدد من الطراخنة وعدد كبير من الوصائف والرقيق[2]، وكان معها عشر عربات من الخيم المتحركة المصنوعة من أفضل أنواع الحرير، وكانت أرضياتها مفروشة بفرو السمور، وفيها جهازها، كما كان هنالك عشرون عربة أخرى حملت صناديق الذهب والفضة والأشياء الثمينة الأخرى، وقد شكل هذا كله مهر السيدة الخزرية[3]، ومن المحتمل أن العرس قد احتفل به في مدينة برذعة، ففي برذعة توفيت هذه الأميرة فيما بعد أثناء ولادتها لولدها[4]، وقد توفي هذا الوليد أيضاً، وغادرت حاشية الأميرة برذعة وعادت إلى بلاد الخزر، وهي مليئة بالشكوك من المسلمين، وعلى قناعة بأن سيدتهم قد قتلت خيانة، وقد عدّ الخاقان ما حدث مناسبة لإعلان الحرب[5].

وتدفق الخزر جنوباً تحت لواء قائد[6] دعته المصادر باسم «رأس طرخان»[1]، واجتاح الخزر الأراضي التابعة لحصنين (حمزين) اللكز، وبلاد اللان المجاورة لداريل[2]، وتابع الغزاة

---

(1) تبعاً للاوند كانت ابنة الخاقان (فرنادسكي، روسيا القديمة: 288، نقلاً عن بروست، تاريخ جورجيا: 1/ 257، الحاشية 1).

(2) الطبري: 3/ 647.

(3) ابن الأعثم الكوفي، اقتباس زكي وليدي، ابن فضلان: 120.

(4) الطبري، المصدر السالف.

(5) لقد افترض أن ما رواه الطبري هنا في حوادث سنتي 182 و183 حول أميرة خزرية قدمت كعروس للفضل بن يحيى البرمكي والي أرمينيا، كان ينبغي ذكرها في حوادث سنة 145، ويقدم الطبري في أخبار سنة 183م أسباباً أخرى بديلة حملت الخزر على مهاجمة بلاد الإسلام في تلك السنة، ويبدو أن موت ابنة الخاقان ارتبط بما حدث من فوضى عام 145. انظر مرقوارت: 5 والحاشية 416.

(6) كذلك اليعقوبي: 2/ 446 (الطبري: 3/ 328 ـ أسترخان)، زد على هذا ما يدعوه اليعقوبي باسم ملك الخزر، ولا توجد عند اليعقوبي إلا صيغة واحدة هي «حليس طرخان» وذلك على الرغم من بارثولد (الموسوعة الإسلامية، مادة خزر) وزكي وليدي (ابن فضلان: 218، الحاشية) ويقدم نص هوتسما الطبوغرافي ملاحظتين، وأن حليس هي صيغة بديلة لـ «حلبس» وليس لـ «رأس» كما أكد بارثولد ووليدي، وتنبه قراءة هوتسما السهلة للنص إلى القراءة التي فيها «رأس. طرخان»، هذا ما جاء في الطبري «أسترخان»، إذا صح فمعناه «طرخان الآس» (الآرسية عند المسعودي «وهي آس ـ طرخان»، وليس «أستار، خان» حسبما ورد في الموسوعة الإسلامية، مادة تفليس، وهنالك =

توغلهم في أراضي الخلافة، وهزموا خليفة الوالي يزيد بن أسيد[3]، وقد تجنب هذا الوالي الصدام بهم، وعندما سمع الخليفة المنصور الأخبار بعث بقوة قوامها عشرون ألفاً من أهل الشام وأهل الجزيرة متنت موقف يزيد بن أسيد، وبعد ذلك اشتبك يزيد بالمهاجمين فكانت النتائج لغير صالحه، وقد أرغم على التراجع، وباتت الحالة خطرة الآن.

ولم يكن لدى الخليفة ما يبعث به من القوات النظامية، فاضطر إلى اللجوء إلى إجراء غير اعتيادي بأن فتح السجون، وأخرج منها سبعة آلاف سجين وزودهم بالسلاح وبعث بهم شمالاً، ورافق الجيش أعداد من الحجارين والبنائين والحرفيين، وعندما وصلت إلى أهدافها كان أول ما قامت به بناء مجموعة من الدفاعات والحصون، وشحنت هذه الدفاعات بكل سرعة بما لزم من الرجال والسلاح وبذلك أمكن إيقاف الزحف الخزري[4]، ولم نسمع إثر هذا بأخبار وقوع أية معارك كبرى.

= شواهد أخرى مؤيدة لصيغة اليعقوبي «رأس طرخان» حيث يعتقد مرقوارت أنها ربما مأخوذة من مصدر أرمني «355، الحاشية» وهنالك صيغ أرمنية متعددة منها طرخان، راي، ورزه، طرخان (5 الحاشية 1 و114) والصيغة الأخيرة موجودة عند لاوند (ط. شاه نظريان 163) حيث قال أرسل خاقان الخزر جيشاً كبيراً تحت قيادة قائد حمل ذلك الاسم، وعاد بأصله إلى قبائل «الختير إيلتبير». ويبدو على هذا أن اليعقوبي أخطأ في دعوته ملك الخزر باسم «رأس. طرخان»، وفيما إذا أراد بذلك الخاقان، كما أنه لم يكن «البك» فيما إذا صح، وهو صحيح، أن «ختير إيلتبير» حوت اللقب «إلتبير» (وصف زكي وليدي «الختير إيلتبير» على أنها أسرة نبيلة وسط الخزر، (ابن فضلان: 106)، ويضيف الطبري (المصدر نفسه) بعد كلمة «أسترخان» كلمة الخوارزمي، ويشير هذا ثانية إلى أن الأرسية كانوا من المناطق المجاورة لخوارزم (المسعودي) هذا وإن ملاحظات فرنادسكي وافتراضاته أن كلمة رأس هي «روس» (روسيا القديمة: 285) هي خطيرة جداً.

(1) يضع اليعقوبي الحوادث في سنة 141هـ، بينما يقدم الطبري سنة 147هـ كتاريخ لهجوم الخزر بقيادة أسترخان الخوارزمي، لكن الطبري (3/ 318، ابن الأثير: 5/ 212) يتحدث عن هجوم خزري على أرمينيا عبر الباب في سنة 145هـ، وأعطى ابن العبري هذه السنة نفسها (الترجمة: 114) وعلى هذا يمكن وصف الأحداث أنها استمرت عبر عدة سنوات ولا يعطي ياقوت (البلدان: 1/ 439) أية تاريخ.

(2) أخذ الخزر تبعاً لابن العبري (المصدر نفسه) خمسين ألفاً من الأسرى، وفي كتاب العنوان للمنبجي الرقم نفسه (تحقيق فازلييف ـ باريس 1909: 2/ 543).

(3) كان اسمه موسى بن كعب (المنبجي، المصدر نفسه).

(4) اليعقوبي: 2/ 447.

وقد استولى البيزنطيون بعد هذا بوقت قصير على واحد من هذه الحصون، وكان يقع إلى الغرب من كمخ، وهوجم هذا الحصن من قبل أخي الخليفة وحوصر طيلة صيف (151هـ/ 768م دون أن يسترد، والمثير للانتباه في هذه الحملة هو أن عساكر من الخزر شكلت جزءاً من الجيش المسلم)[1].

وخلف المهدي المنصور بعد وفاته سنة 158هـ/ 775م، وفي حوالي سنة 780م قام شاب عربي من أهل بغداد بزيارة بلاد الخزر برفقة الأمير الجورجي نرسي Nerse، وحظي هذا الشاب فيها بشهرة واسعة، وبات يعرف بالقديس آبو التفليسي، وقد كتبت سيرة هذا القديس بالجورجية بعد موته بزمن قصير[2].

ومع أنه ليس هنالك من شك أن السيرة بمجملها كتلة من الجهل، وليست أكثر من عمل بدائي له صلات بالحقيقة، فإن هذه المدونة لربما حوت بعض بقايا أصيلة من أخبار الرحلة، وتبعاً لكاتبها قرر نرسي مغادرة بلاده نتيجة لما تعرض له من متاعب على أيدي العرب، فقد أرسل أولاده وزوجته إلى بلاد الأبخاز المجاورة له، ثم تحرك نحو بلاد الخزر ومعه ثلاثمائة من الأتباع وقد اجتاز في طريقه ممر داريل، ولم يقدم الكاتب إيضاحاً لأسباب هذه الزيارة ومقاصدها، لكنها بدون شك ابتغت الحصول على المساعدة العسكرية.

ويبدو من الاستقبال والترحاب الذي لقيه الأمير، أن سياسة الخزر في تلك الآونة كانت مستقلة عن الخليفة، ولديها توجهات لدعم المسيحيين هنا، وكما حدث من قبل وصفت بلاد الخزر هنا «ببلاد الشمال» وجاء ذكر الخاقان تحت اسم «ملك الشمال»، وتربط هذه الأسطورة الخزر بقوم يأجوج ومأجوج، وقد ورد هذا مراراً في هذه الرواية الجورجية، وإذا كان الخزر قد وصفوا بأنهم «رجال متوحشون ذوي وجوه عريضة، وأخلاق تشبه أخلاق الوحوش المفترسة آكلة اللحوم»[3] فهذا يمكن أن يكون جزءاً من التقاليد التي كانت سائدة أكثر مما شاهده الرحالة.

---

(1) أسيماني، المكتبة الشرقية: 3/ 113، نقلاً عن دانيوس التلمحري.

(2) انظر:

K. schulteze, Das marty rium des heilgen sbo von tiflis texte unter suchungenzui Geschichte der altchris lteratur, neue folge, 13, 1905.

(3) شولتز: 23.

هذا ويتحدث المؤلف الأرمني موسى كلنكتوك بشكل مماثل عن «جموع الخزر المرعبة، ذوي الوجوه العريضة، والشعور الطويلة مثل النساء»[1]، وحوت عدة مدن وقرى من بلاد الخزر مسيحيين، وعلينا أن ندرك أن آبو الذي كان منذ زمن طويل من مؤيدي المسيحية، قد جرى تعميده في بلاد الخزر من قبل راهب مبجل.

وتبعاً للكاتب «كان الخزر على العموم بلا دين واعترفوا برب خالق فقط»[2]، ولم يذكر أي شيء محدد حول دين ملك الخزر[3]، وليس هناك ما يوضح إذا كان المسافرون الجورجيون قد وصلوا إلى عاصمة الخزر على نهر الفولغا، وطلب نرسي بعد مدة من وصوله الإذن من مضيفه للسفر إلى بلاد الأبخاز، ورضي الخزر وأرسلوا معه من صحبه طوال الطريق وأصحبوه بكمية من الهدايا، وقد مروا من خلال «بلاد الكفار الذين لا يؤمنون برب من الأرباب»[4]، وقضوا فيها ثلاثة أيام بلياليها[5] قبل أن يصلوا إلى غاياتهم، ومن الممكن اعتماد هذه التفاصيل عن المسافة إلى بلاد الأبخاز، ولعل الجورجيون قد وجدوا ملك الخزر معسكراً في بقعة بعيدة إلى الجنوب من أتل.

وقبيل نهاية القرن الثامن في سنة 786 أو 787م تعرض قوط القرم للهجوم من قبل الخزر، وقد حوصرت دوروس Doros[6] التي كانت عاصمتهم وأعظم حصونهم ثم سقطت، وولي تودون خزري[7] عليها، وثار القوط بقيادة أسقفهم جون ضد الغزاة، ولاقوا في البداية بعض النجاح، ولكن توجب على الأسقف المحارب في النهاية الخضوع،

---

(1) اقتباس مرقوارت: 44، الحاشية: 4.

(2) شولتز: المصدر نفسه.

(3) لفت زاجاتشكوسكي الانتباه إلى الاهتمام الذي أبدي في بلاد الخزر تجاه المركز الرسمي لقسطنطين مع وضعه، وذلك بتعيين قصر ملكي له، وفي هذا دليل على وجود تقاليد تركية قديمة بين الخزر (الثقافة: 4).

(4) شولتز: 24.

(5) قال فازلييف (القوط في القوم: 99) إن الرحلة استغرقت ثلاثة أشهر.

(6) جرت العادة على القول إن الموقع المؤثر المعروف باسم «منكوب، فلا» هو موقع «دوروس» (انظر فازلييف، القوط: 47..) لكن الأثريون الروس يدعون أن «راسكي، كرمن» هي موقع دوروس الوسيطة (انظر ما سلف: 51، الحاشية 129).

(7) انظر ما سلف: 91، 106.

وقيل أنه تمكن وهو بالسجن من شفاء طفل القائد الخزري[1]، ولم يحتفظ الخزر بدوروس لمدة طويلة، فبعد بضعة أشهر كانت هذه البلدة في أيدي البيزنطيين[2].

وإذا ما عدنا ثانية إلى مسلمي الشرق، نجد أن خلافة هارون الرشيد قد شهدت منذ عام 170هـ/ 786م اضطرابات مستمرة في أرمينية، فقد ثار الأرمن إثر وفاة المهدي، واستمروا متمردين لم يخضعوا خلال الحكم القصير للهادي، وأخفق في أيام الرشيد عدد من الولاة المتعاقبين في إعادة الهدوء، ووراء الحدود بقي الخزر دونما حراك، ولم يحاولوا استغلال مصاعب الخلافة، وجرى في سنة 180هـ/ 796م تعيين وال جديد هو سعيد بن سلم[3]، وسارت الأمور بشكل جيد مع سعيد في البداية، لكنه ما لبث أن تعادى مع الزعماء المحليين، فبدأت الاضطرابات ثانية، وكان قائد منطقة الباب اسمه نجم الدين هاشم[4]، وأمر الوالي بقتله وعين قائداً بديلاً عنه، فقام ابن المقتول بخلع الطاعة، وقتل القائد الجديد الذي عينه سعيد[5]، وكتب إلى ملك الخزر ينشد العون ضد المسلمين[6]، واستجاب

---

(1) المصدر الأساسي هو حياة القديس يوحنا القوطي، وقد نشرت مع حواشي من قبل فازلييفسكي Rus- vizant issedivaniya.

(2) اليعقوبي: 2/ 515.

(3) الطبري: 3/ 648. ويقدم الطبري روايتين بديلتين لما حصل بعد ذلك، وتبدو الرواية الأولى وكأنها تشير إلى حادث مبكر، انظر ما سلف حاشية: 42. ودعي الخزر تبعاً للرواية الثانية، من قبل رجل اسمه ابن المنجم، وينبغي تصحيح اسم العلم هذا إلى «ابن النجم» - انظر ما يلي - وجرى الالتزام بالرواية الثانية، لأنه من المستبعد أن فقدان ابنه، أعطى خاقان الخزر الحجة لإثارة الحرب ضد الخلافة في أكثر من مناسبة، ولعل الاضطراب يعود إلى التشابه في أسماء حكام أرمينيا، ففي سنة 145هـ كان الوالي هو «يزيد بن أسيد» وفي 183هـ «يزيد بن مزيد».

(4) اليعقوبي: 2/ 518.

(5) تبعاً لفيل (Geschchte derchalfen, II, 158) من الأسباب التي قدمها المؤرخون (نقلاً عن ابن الأثير، وابن خلدون، واليافعي) للهجوم الخزري في حوالي سنة 183هـ هو أن خاقان الخزر قد قتل من قبل عربي انتقاماً لمقتل أبيه، والمصدر المحتمل لهذا الخبر هو المصنف اليافعي صاحب مرآة الجنان المصنف حوالي 750/ 1349، ولا يعرف ابن الأثير (6/ 54) ولا ابن خلدون (3/ 225) شيئاً عن مصير خاقان الخزر ومقتله، ولاحظ فازلييف (القوط: 92) هذه الغلطة.

(6) الطبري، المصدر السالف.

الخزر ووصلت جيوشهم العملاقة إلى الباب، ولقد قيل بلغت قواتهم ما يقارب المائة ألف رجل[1]، واجتاح الغزاة ما واجههم من مقاومة، وتقدموا زاحفين لا يبالون بأي مقاومة حتى وصلوا إلى نهر كور (سيروس) حيث توقفوا هناك، ولكن ليس قبل أن يصاب هارون بالذعر الشديد، وقد تبددت إجراءاته الأولية، لكن لسبب ما لم يتحقق التهديد تماماً، فبعدما أعمل الخزر ضد المسيحيين [أي ضد الأرمن] والمسلمين، وبعدما نزلت بهؤلاء خسائر كبيرة، تراجع الخزر ومعهم أسراهم، وبعد مضي بعض الوقت، وصل يزيد بن مزيد الشيباني مع صلاحيات مطلقة، وكان يزيد ممن ولي المنطقة من قبل[2]، وكان الخزر قد اختفوا، وخضعت أرمينية بكل هدوء لحكمه، وقد مكث الغزاة مدة سبعين يوماً، وهذه كانت آخر غزوات الخزر ضد المسلمين لدينا أخبار عنها (183/ 799).

ولدى المؤرخ الجورجي حكاية مشابهة[3] بعض الشيء لحكاية الحادثة التي تعلقت بابنة الخاقان، ويزيد بن أسيد، التي أرخناها بسنة 145هـ/ 762م، فتبعاً لهذا المؤرخ كان لدى الأمير جونشير Juansher، حاكم جورجيا أخت شابة جميلة، وقد وصلت شهرتها إلى الخاقان فبعث برسول يطلب يدها مع وعد أن يأتي مقابل ذلك لتقديم العون للجورجيين في مقاومتهم للعرب، ورفضت أم جونشير، وأخوه بشده، وتحدثت الفتاة نفسها بحنق عن الخزر، وبعد مضي ثلاث سنوات بعث الخاقان بقائده بلوشان Bluchan لغزو جورجيا (واستولى بلوشان اسمه في النص الأرمني من الحكاية بولجانBulgan[4]) على قلعة جونشير وحمله مع أخته أسرى، وبينما كان الأسرى يمرون خلال ممر داريل تحت حراسة الخزر تناولت الأميرة السم، ووصل بلوشان إلى بلاط الخاقان وأخبر بموت العروس المنتظرة، وطلب الخاقان رؤية جسمها، واشتعل غضباً لأنها لم تجلب له، وأصدر

---

(1) وكذلك ابن الجوزي اقتباس دي غويه في الطبري، المصدر نفسه، الأمر الآخر كان هنا تعداد المسلمين الذين أخذوا أسرى من قبل الخزر.

(2) دي غويه (الموسوعة البريطانية، ط11، مادة: خلافة) حيث ذكر أيضاً خزيمة بن خازم، جرى اعتماد رواية اليعقوبي. تناول الشعراء شجاعة يزيد بن مزيد ضد الخزر، انظر أيضاً ابن الأثير: 6/ 55.

(3) انظر أيضاً مرقوارت: 416. . .

(4) مرقوارت: 417، حاشية 2. من أجل الاسم «بولان» «بولخان» انظر الفصل السادس.

أمره بإنزال عقوبة الإعدام بقائده، ووضع حبل حول عنقه وجاءت النهاية عندما صدرت الأوامر إلى فارسين أمسك كل منهما بطرف الحبل بالعدو باتجاه معاكس، وهكذا انفصم الرأس عن الجسد، وتختم الرواية حكايتها بأن جونشير قد سمح له بالعودة إلى مملكته، وذلك بعدما مكث بالسجن سبع سنوات.

ويميل مرقوارت إلى ربط الهجوم الخزري بقيادة بلوشان مع أحداث سنة 183[1] هـ/ 899م، وتبدو بعض النقاط في الحكاية أنها صحيحة، وتتواءم مع ما نجده في المصادر الأخرى أنه كان على الخاقان أن يطلب الزواج من ابنة حاكم مجاور عن طريق الإكراه كما فعل، وأنه كان يملك السلطة المطلقة في الأمر بقتل واحد من قادته لا بل حتى بقتل البك[2]، الذي كان المعني بالحكاية، وجرى تقديم الخاقان على أنه كافر وليس يهودياً، هذا ولا يمكن اعتماد الحكاية كبيّنة على أن تحول الخزر إلى اليهودية لم يكن قد حدث بعد.

وفي أيام حكم جونشير، يبدو أن ليو أمير الأبخاز، الذي كان ابن ابنة ملك الخزر[3]، أي الخاقان كما يفترض، قام هذا الأمير بالاستقلال عن البيزنطيين بمعونة الخزر، ولقد كانت هذه واحدة من المناسبات القليلة التي نجد الخزر فيها يعادون الامبراطور.

وطلب خاقان الخزر والبك[4] في سنة 218هـ/ 833م أو حولها، من بيزنطة تقديم العون في سبيل بناء حصن على الدون[5]، وبعث الامبراطور ثيفيلوس ببعثة بحرية لتتولى ذلك، وقد سافرت هذه البعثة عبر كيرسون وبحر آزوف حتى الأراضي الخزرية، وفي مكان ما على الدون بنى البيزنطيون حصناً من الطوب، اسمه بالإغريقية أسبرون هوسبيشون Aspron Hospition (تبعاً لقسطنطين بورفي) أو ليكون أوكيما Leukon oikema (تبعاً

(1) مرقوارت: 417.

(2) ابن فضلان، الفصل الخامس.

(3) مرقوارت: 422، وانظر أيضاً، بارثولد، الموسوعة الإسلامية مادة «أبخاز».

(4) قسطنطين بورفي، الإدارة الامبراطورية، فصل: 42. ثيوفانس كونتين: 922.

(5) هنالك شكوك حول مكان الموقع من قبل فرناندسكي(روسيا القديمة: 305)، وقيل إن مكانها على الشاطئ الأيمن لنهر الدون عند مصب نهر تسيملا، ووقعت سركيل تبعاً لمرقوارت عند مصب نهر الدون.

لصلة ثيوفانس) ودعي بالروسية بيلافيزها[1] Biela Viezha، أما الخزر فتحدثوا عنها باسم ساركيل[2]، وقد عنت هذه الأسماء الشيء نفسه وهو البيت أو الحصن الأصفر أو الأبيض، ويمكن شرح كلمة ساركيل في هذا المجال اعتماداً على شوفاش chuvash التركية، وهذه حقيقة يمكن أن تزودنا بشرح لما ذكره الاصطخري، وابن حوقل من أن لغة الخزر تختلف عن التركية[3]، فقد أثر هذا القول على إثبات حقيقة أصل الخزر التركي، وقد تميزت لهجة شوفاش باستخدامها L وI وR بدلاً Sh وA وZ حسب غالبية اللهجات التركية، فعلى سبيل المثال التركية العثمانية هي لهجة «ليـر Lir» التركية، ولدى استخدام هذه اللهجة بشكل عام فإنها لاشك غير مفهومة مثل شوفاش في أيامنا[4]، بالنسبة للأتراك الذين يتحدثون بلهجة شاذ Shaz، وبناء عليه من الممكن إيضاح ما قيل أن الخزر لم يتكلموا التركية بهذه الطريقة، ومن المحتمل أن لغة بلغار الفولغا كانت من مجموعة لهجات الليـر التركية، ومن هنا لاشك بما قد جاء عند الاصطخري وابن حوقل من أن لغة البلغار تشابه لغة الخزر[5].

أما بالنسبة للمقصد من بناء الحصن، فمن المفترض أنه أريد منه الدفاع ضد عدو قادم من الغرب، فمن هو هذا العدو؟ ليس واضحاً لدينا تماماً، ويوحي أحد المصادر البيزنطية أن البشناق هو العدو المقصود، حيث تحدث عن حادث لا نعرف أنه اجتاز غربي نهر الدون حتى ستين سنة قادمة[6]، وعلى أنه يمكن التفكير بوجود بعض العصابات منذ تاريخ مبكر[7]، وفي

---

(1) انظر الفصل التاسع.

(2) رد يوسف (النص الطويل) ساركيل (شاركيل).

(3) من الممكن توضيح ذلك بشكل مماثل، وتبعاً لزاجا تشكوسكي من كلمة عامة يعني «شاز التركية» (اقتبسها برتساك، در، إسلام: 29/ 99).

(4) بارثولد، الموسوعة الإسلامية، مادة: بلغار.

(5) انظر الفصل الخامس.

(6) انظر مايلي.

(7) يعني بشناق أتراك، وعاش الأتراك البشناق شرقي الفولغا وغربي الغُزّ حتى هجرتهم، وقد ذكرهم صاحب حدود العالم: فصل 22/ 47، وهم من بشناق الخزر في القوقاز الذين غادروا ديارهم في آسيا في وقت مبكر لربما بصحبة الآس. انظر زكي وليدي «Volkerschaften»: 55، 57.

نص لدى المسعودي، سنعود إليه، قام بوصف حملة روسية زحفت نحو بحر قزوين عن طريق بحر آزوف وعن طريق الفولغا والدون وذلك في العام 301هـ/ 913م، وقد ذكر وجود نقطة دفاع قوية للخزر على طريق الحملة، وكان فيها جند نظاميون واقفون ضد الغز[1]، ومن الممكن القول إن هذه النقطة هي ساركيل، وهناك رأي يقول إن ساركيل قد بنيت ضد[2] المجر Magyars، ولعل الأكثر احتمالاً هو أن أعداء الخزر في هذه الجهات كانوا منذ زمن (218/ 833) هم الروس، الذين كانت قوتهم في تلك الآونة بازدياد إلى الغرب والشمال من مملكة الخزر[3].

ولاشك أن ساركيل ظل مركزاً عسكرياً، فقد ورد ذكره في رد يوسف، لكنه غير موجود في قائمة بلدان الخزر لدى المقدسي، وصاحب حدود العالم[4]، ولا عند سواهما من المصادر الإسلامية، ولهذا السبب وحده فإن اقتراح بولياك، في أن ساركيل كان مركز واحدة من المقاطعات الأربع الرئيسة التي شكلت ـ تبعاً له ـ دولة الخزر، اقتراح غير مقبول[5]، ويظل الافتراض القائل إن ساركيل اسم عاصمة الخزر افتراضاً مرفوضاً بشكل أكبر[6].

---

(1) مروج الذهب: 2/ 18.

(2) مرقوارت: 28، معتمداً على قول ابن رسته (143) أن الخزر قاموا في الماضي بحماية أنفسهم بخندق، وذلك ضد المجر والشعوب المجاورة الأخرى. انظر زكي وليدي Volkerschaften: 51، 52.

(3) وكذلك لدى فازلييف، القوط: 109 . . . فرنادسكي، روسيا القديمة: 304. لكن بري قال في (الامبراطورية الرومانية المبكرة: 418) إن ذلك كان من قبل.

(4) لدى المقدسي لائحة بأسماء تسع مدن خزرية قد تكررت مرتان (51 ـ 355) وهي: أتل، بلغار، سمندر، سوار، بغند، قيشوي، البيضاء، خملج، بلنجر، ومن أجل بغند، انظر بجكند، وهي مدينة قد ازدهرت في منطقة سقسين، وذلك تبعاً لأحمد الطوسي (اقتباس زكي وليدي في ابن فضلان: 205) ولعل قيشوي مذكورة، أو ورد ذكرها بمثابة اسم مكان في دربندنامه مثل: كيوان (قاسم بك: 477) والمدن السبعة هي أكثر شهرة، وذكر صاحب حدود العالم أسماء عشر مدن (50) خمس منها على الأقل معروفة وهي: (أتل، وسمندر، وخملج أو خمليج، وبلنجر، والبيضاء) انظر تعليقات منورسكي.

(5) بولياك (التحول: 2) حيث لا يحاول البرهنة على أن امبراطورية الخزر قد جرى تقسيمها هكذا، وقد عدل هذا الرأي في «خزاريا»: 43، 55، 218.

(6) على سبيل المثال سلوتشز: Melanges H. Derenbourg 72, 76.

وتحكي عدة مصادر عربية حكاية، إذا كانت لا تمنحنا رؤية صحيحة لمملكة الخزر، فإنها ترينا على الأقل كيف كان الخزر في أعين أحد العرب في القرن التاسع[1]، لقد قيل إن ذلك كان عند الفضل بن سهل، وزير المأمون (813 ـ 833) المشهور، وكان عنده رسول ملك الخزر[2]، فتحدث عن مجاعة ألمت بالخزر، فقامت خاتون، أخت ملك الخزر فنصحت الخزر بكل حكمة بالخضوع إلى مشيئة الله، وكانت النتيجة أن تخلصوا من النازلة التي ألمت بهم[3]، وكانت الكلمات المعزوة إلى الخاقان عامة بما فيه الكفاية، لكن من المهم أننا نجد في إحدى روايات القصة أن الخزر عندما لحقتهم المجاعة طرقوا أولاً باب الملك الأصغر يعني باب الملك (أخو خاتون) ثم طرقوا «باب الملك الأعظم» وهذا يدل على الخاقان والبك، والدليل هنا صحيح[4] تماماً، وكان الفضل بن سهل واحداً من أعظم شخصيات الإسلام سلطاناً، ومن الطبيعي أن يزوره رسول الخزر.

ومن الجدير بالذكر أننا نادراً ما سمعنا في مكان آخر عن قدوم رسول خزري إلى بغداد، كما أنه لا توجد أدنى إشارة أخرى إلى أن نساء خزريات قد شغلن دوراً هاماً في شؤون الدولة، مع أن هذا قد يكون أمراً طبيعياً بالنسبة لبعض السيدات ذوات المناصب العليا لدى شعوب الترك، وتذهب الحكاية إلى أن الخاتون بعدما نجحت في جهودها السياسية أنعم عليها بمنصب الملك، ولاشك أن هذه التفاصيل مخترعة، ومن جديد لا تشير الكلمات المنسوبة إلى الخاتون إلى يهود الخزر.

ولقد قيل بأن يهود العراق قد عظمت آمالهم في أن يتمكن الخزر من تدمير الخلافة[5]، ولقد رأينا كم كان التهديد حقيقياً في مختلف الأوقات، ولقد ألقي بعض الضوء على الوضع

---

(1) موجود في كتاب المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي (ت: 284/ 994) تحقيق ل. بوللي. ستوتغارت 1939. وفي زهر الآداب للحصري (ت بعد 384/ 994) وفي سراج الملوك للطرطوشي (توفي حوالي 520/ 1126)، ولكن الحكاية تعود إلى الجاحظ (ت 255/ 869).

(2) التاريخ ليس بعد سنة 202/ 818، وهي سنة وفاة الفضل.

(3) زهر الآداب. ط. زكي مبارك: 1/ 254، 255.

(4) سراج الملوك، ط. القاهرة 1306: 152. نقلاً عن زكي وليدي، ابن فضلان: 264.

(5) هاركفي في ذكرى كوهوت: 244، بالعبرية، نقلاً عن مفيد: 1877.

عن طريق الروايات التي تحدثت عن سقوط الأفشين[1]، وكان هذا الرجل تركياً من أشروسنة، ومن أفضل قادة المعتصم، وقد تعرض لغضبه وسقط من سدة سلطانه في سنة 225هـ/ 840م، وقيل إنه خطط قبل سقوطه والقبض عليه للهرب عبر الموصل وأرمينية إلى مملكة الخزر، حيث كان يأمل أن يصل من هناك إلى تركستان، ومن ثم يعود إلى ديار الخلافة على رأس جيش[2]، ولاشك أنه كان في مخيلته خطط هائلة، أو على الأقل اعتقد أنه حمل ذلك، فلقد قيل إنه كان قد أرسل للبيزنطيين، وقد عزم على استخدام الخزر ضد المسلمين، واتهم أثناء المحاكمة بأنه كان مجوسياً، أي من أتباع الديانة الزرادشتية، وقدمت أدلة أيدت هذا الاتهام، ويمكن أن لا يكون لهذا أدنى علاقة بالخزر، فعلى الرغم من أن النصوص تصفهم بالمجوس[3] ليس هنالك ولا دليل واحد يشير إلى أن هذه العقيدة قد ازدهرت في بلاد الخزر[4]، والقول إن الخزر كانوا مجوساً يقف على المستوى نفسه للأقوال التي ذهبت إلى أن الفيكونغ الذين هاجموا شواطئ الأندلس كانوا مجوساً، وكذلك إطلاق هذه السمة على الروس الوثنيين، ويبدو أن اقتراح فيرناندسكي أن ديانة الخزر الأصيلة قد حوت بعض عناصر عبادة النار، اقتراح لا أساس له من الصحة[5].

وهنالك إشارة في كتاب الأغاني[6] إلى أن غلاماً ـ أو عبداً ـ خزرياً قد استرعى انتباه الشاعر أبي تمام (حوالي 231هـ/ 846م)، وتثير هذه الإشارة مسألة وجود أناس من أصل خزري يعيشون في ظل الخلافة، ولاشك أنه وجد شيء من هذا القبيل، ولعل أشهرهم هو إسحاق بن كنداج (أو كنداجيق) الذي سلفت الإشارة إليه، وتكين بن عبد الله الخزري الذي ولي مصر ثلاث مرات[7] (حوالي سنة 920)، ويبدو أن كلاً منهما كان من الجند

---

(1) انظر إ. م. رايت «بابك البذ والأفشين خلال سنوات 816، 841». العالم الإسلامي: 1948: 43، 59.

(2) الطبري: 3/ 1305.

(3) الطبري، اختلاف الفقهاء، ط. شاخت، ليدن 1833: 20.

(4) يقترح زكي وليدي في (ابن فضلان: 319، الحاشية 1) إمكانية وجود بوذيين بين الخزر، ولكن من المؤكد أنه لا البوذية ولا الزرادشتية كانت ذات تأثير بينهم.

(5) الموسوعة الإيطالية، مادة، خزري.

(6) 15/ 107.

(7) انظر زكي وليدي، ابن فضلان: 109.

الذين شملهم الحظ فترقوا المناصب في خدمة الخلافة، ويبدو أن عبد الله بن بشتوي الخزري، الذي ورد ذكره في تاريخ أبكر كان من الخزر الفارين من خدمة الخاقان، كما كان هنالك أناس من مستوى أدنى مثل الثلاثمائة أسرة التي تخلت في سنة 854م عن ديار الخزر، وجاءت إلى ديار المسلمين رغبة في اعتناق الإسلام، ولدى وصولها إلى الباب أسكنها والي أرمينية وأزدبيجان في هذه المدينة الشمالية[1]، وأتت الأخبار على ذكر أسماء رجال يعتقد أنهم كانوا من أصل خزري[2]، ولاشك أن بعض هؤلاء قد ارتبط ببلدة دربند ـ خزران (الباب) ومن هنا حمل نسبة خزري مع أنه لربما كان من أصل عربي مزيج، ولكن بعضهم لاشك أنه كان خزرياً صافياً، ومهما يكن الحال إننا لا نملك الانطباع بأن أعداد الخزر كانت كبيرة في ديار الإسلام، لكنهم وجدوا في جميع مجالات الحياة[3].

وقد قيل عن الخليفة الواثق (227 ـ 232هـ/ 842 ـ 847م) إنه بعث العالم محمد محمد بن موسى الخوارزمي في بداية عهده، إلى «طرخان ملك الخزر» وإذا صح وزار الخوارزمي مملكة الخزر، فالمرجح أنه فعل ذلك لمقاصد علمية[4]، وقد ذكر ذلك المقدسي دون سواه[5]، أما زيارة سلاّم الترجمان إلى بلاد الخزر[6] فيما بعد فحولها مواد إخبارية أكبر، وليست رحلة سلاّم موضع اهتمامنا هنا اللهم إلاّ الجزء المتعلق ببلاد الخزر منها، لكن لابد من أن نقول شيئاً ما حول ظروفها، فلقد اختص سلاّم بمعالجة شؤون المراسلات التركية للخليفة، وقيل إنه كان يعرف ثلاثين لغة[7].

---

(1) شمكور (بلاذري: 203) انظر أيضاً مرقوارت: 412.

(2) انظر أنساب السمعاني (ط. ذكرى جب) ورقة: 198.

(3) من أجل الخزر في سامراء، انظر الفصل الثامن، حاشية 67.

(4) د. م. دنلوب «محمد بن موسى الخوارزمي» المجلة الملكية للدراسات الآسيوية 1943: 248، 250.

(5) تحقيق دي غويه: 362.

(6) زكي وليدي (ابن فضلان: 198، الحاشية) حيث استخدم من أجل رحلة سلام الإشارات الواردة لدى ابن خرداذبه والإدريسي، ومجمل التواريخ والمقدسي، ومن الممكن أن نضيف إلى هؤلاء ابن رسته (149) والقزويني (ط. وستنفيلد: 1/ 128) والنميري (1/ 374، نقلاً عن الإدريسي) وذكر بربير دي مينارد في ترجمته لابن خرداذبه (المجلة الآسيوية 241: 1865، الحاشية 1) أشياء لم يقلها المقدسي (ط. دي غويه: 362) مع أنه نسبها له.

(7) ابن رسته: 149. ابن خرداذبه: 163.

وقد روى أخبار رحلته ابن خرداذبه بشكل حرفي من تقرير أعد للخليفة، وتبعاً لما جاء هنا، كان الخليفة الواثق قد انزعج من الاعتقاد أن سور يأجوج ومأجوج قد خرق[1]، لذلك كلف سلاَّماً بالتوجه إليه وتفحصه، وقد زوده برسالة موقعة من الخليفة إلى إسحق ابن اسماعيل بن شعيب والي أرمينية[2]، وانطلق اسحق نحو جبال القوقاز، وعندما وصل إلى تفليس قابل الوالي هناك، وأعطاه أوامر الخليفة وتعليماته، وقام اسحق بن شعيب بإرسال البعثة إلى حاكم السرير الذي ربطته به علاقات طيبة، ومن بلاد السرير انتقلوا حتى وصلوا إلى ملك اللان، وإلى فيلان شاه، وكتب فيلان شاه رسالة توصية بالبعثة أرسلها إلى «طرخان ملك الخزر»، وجاءت المعلومات عن بلاد الخزر في رحلة سلاّم قليلة جداً، فلقد قيل إن البعثة قد مكثت مع الملك ليوم وليلة فقط[3]، أو لمدة خمسة أيام[4]، وأعطانا ابن خرداذبه الإسم نفسه لحكام بلاد الخزر، كما فعل المقدسي قبل سنة أو سنتين، لكن من الصعب تصور أن هذا كان صحيحاً، فلقد كان طرخان لقباً تركياً أكثر منه اسماً خاصاً، فلقد واجهناه عدة مرات من قبل، وجاء بمثابة لقب تميز به الضباط ذوو المراتب العليا، ويبدو من روايتيهما أن لقب «طرخان» قد حل محل لقب آخر[5]، أو إذا صح فطرخان لقب يستلزم استخدام اسم آخر قبله، مثل القول: «هزار طرخان[6]» و«رأس طرخان»[7]، ومن الصعب الاعتقاد أن استخدام المقدسي للمصطلحين يؤكد صحتهما، فهو قد كتب في حوالي سنة 375هـ/ 985م، ولاشك أنه استقى ما وجده في المصادر حول رحلة سلاّم[8].

---

(1) انظر حديثاً نبوياً ينذر للسبب نفسه (البخاري. ط. كاهل: 60/ 7) وكذلك القزويني: 2/ 417.

(2) لربما كان والياً على أرمينية في خلافة الواثق، وقد أشير إليه من قبل موسى الكالنكاتوكي (3/ 20، اقتباس مرقوارت: 462).

(3) ابن خرداذبه: 163.

(4) القزويني: 1/ 128.

(5) انظر من أجل خاقان ملك الخزر اليعقوبي: 2/ 518.

(6) انظر الفصل الرابع.

(7) انظر ما سلف.

(8) ونقرأ أيضاً في حدود العالم: 50، أن ملك الخزر قد دعي باسم طرخان خاقان.

ولا يوجد سبب للشك فيما قيل ـ على الأقل في الخطوط الرئيسة ـ حول رحلة سلاّم من قبل معاصره ابن خرداذبه، ويختلف هذا الموقف ويتغير بالنسبة لروايات الأخبار المتعددة المتأخرة التي ربطت باسم سلاّم أو نقلت عنه، فقد تحدثت إحدى هذه الروايات عن «جزيرة الشياه»وقيل إنها كانت واقعة «بين الخزر والبلغار» وأن سلاّم قد وصل إليها بالسفينة[1]، وتحدثت رواية أخرى عن نوع من عرائس البحر رآه سلاّم بينما كان برفقة ملك الخزر[2]، علماً بأنه لم يرد ذكر أي من هذه الأخبار في رواية ابن خرداذبه.

وسنة أو سنتان قبل أن يصبح الواثق خليفة، سببت الإطاحة بدولة الإيغور القوية (840م) اضطرابات شديدة في آسيا، وقد قيل إن إشاعات عما حدث قد وصلت إلى الخليفة، ودفعته إلى إرسال البعثة التي سلفت الإشارة إليها[3]، والمدهش هنا هو أن سلاّم قد أمر بالتوجه إلى القوقاز ليس بشكل مباشر من خلال آسيا الوسطى، ورأى الخليفة أن مهمة البعثة الارتحال نحو «سد يأجوج ومأجوج».

وقصة يأجوج ومأجوج، وبناء ذي القرنين (الإسكندر الكبير؟) لسد يمنعهم به من الخروج قد ورد ذكرها في القرآن[4] [الكريم]، وفسَّر هذا النص الغامض في تاريخ مبكر ليعني تحصينات القوقاز (تاريخها منذ ما قبل الإسلام)، التي تعرف باسم سور دربند[5]، ولهذا أرسل سلاَّم أولاً إلى والي الواثق في تلك الجهات، وهنالك رواية لدى الطبري، قد سلف وألقينا نظرة عليها[6]، لعلها لو كانت معروفة من قبل الواثق، لاشك في أنها قد أسهمت في تحويل أنظاره نحو القوقاز، وتبعاً لهذه الرواية قام حاكم فارسي لدربند قبل وصول المسلمين بإرسال بعثة نحو «سد الإسكندر»، وقد قيل كان عبد الرحمن بن ربيعة موجوداً عندما عاد قائد الحملة الفارسية منهكاً، بعد رحلة دامت عامين، وعرضت

---

(1) القزويني، نفسه.

(2) المصدر نفسه: 2/ 418.

(3) مرقوارت: 90.

(4) سورة 18/ 91 ـ 97.

(5) انظر الفصل الأول.

(6) في الفصل الثالث.

شخصية هذا الرجل وكأنه قد وصل إلى السد، وقام بوصفه بشكل يشبه ما جاء في رواية سلاّم عند ابن خرداذبه[1]، ومن المحال أن نعدّ رواية الطبري صحيحة، ويبدو أنها كانت رائجة أيام حملة سلاّم.

ولا نعرف أصل سلاّم بشكل واضح، ومن البداهة بمكان أن نعتقد أنه كان عربياً، لكن هذا لا يمنع من التفكير أنه كان خزرياً قد دخل في خدمة الخليفة، ولربما كان خزرياً يهودياً[2]، ومهما يكن الحال، يبدو أنه بعدما وصل إلى بلاد الخزر، كان يعرف، أو أنه أرشد إلى حيث كان عليه أن يذهب لينفذ المهمة التي كلفه الواثق بها، وهناك إشارة إلى أن خمسة من الأدلاء ـ عدد كبير نسبياً، لعله بسبب طول الرحلة ـ قد عيّنهم ملك الخزر لمرافقته[3]، ويدل هذا على أنه وجدت آنذاك بعض المعارف والاهتمامات الخزرية بآسيا الوسطى، ولسوء الحظ من الصعب تماماً أن نحصل من رواية سلاّم على معلومات حول مدى امتداد بلاد الخزر باتجاه الشمال الشرقي.

وسلف أن أشرنا إلى والي أرمينيا وأذربيجان الذي أذن في سنة 240هـ/ 854م إلى عدد من الأسر الخزرية بالمرور عبر (باب الأبواب) إلى ديار الإسلام، وكان هذا الوالي هو

---

(1) إن الموجات المتتالية من سواد الضوء والظلام (الحديد والنحاس) هي الملامح الرئيسة في الروايتين، اللتان قد تأثرتا بما جاء بالقرآن الكريم من ذكر للحديد والنحاس المذاب، ومن المفترض أن سلاّم قد تحدث عن شيء قد رآه، ولعل سلاّم قد وصل، كما يرى زكي وليدي، ابن فضلان: 196، الحاشية، إلى البوابة الحديدية إلى الشمال من كولجا في تيين شان، ووافق مرقوارت على ما ذهب إليه دي غويه من أن سور الصين العظيم هو المقصود، وذهب الكونت إ. زيخي في تعليقاته على رحلة سلاّم إلى أن سد يأجوج ومأجوج موجود في واحد من ممرات الأورال، لكن يبدو أن هذا غير صحيح، هذا ونقرأ في نص من مخطوطة الاصطخري الموجود في تشستربيتي أن السد موجود خلف أرتا (أرثا)، وهي مقاطعة روسية أو شعب روسي (انظر الفصل الخامس) وروى الدميري في كتابه حياة الحيوان، ط. القاهرة 1284هـ: 2/ 478 حكاية رحلة إلى سد يأجوج ومأجوج، تمت أيام النبي صلى الله عليه وسلم.

(2) حمل اليهود اسم سلاّم أحياناً مثل سلام بن أبي الحقيق (اليعقوبي: 2/ 51).

(3) ابن خرداذبه: 163. وذكر زكي وليدي (Volkerschaften, 52) أن الرحلة من بلاد الخزر إلى السور احتاجت إلى شهرين، انظر أيضاً ابن الفقيه: 298.

بغا الكبير[1]، وقد أسكن بغا المهاجرين في موقع شمكور القديم، وأعاد تسمية المكان فسّماه المتوكلية تيمناً باسم الخليفة الحاكم، وقد قيل أنه جلب ثلاثة آلاف أسرة من اللان (آس) عبر ممر داريل[2]، ولعل هؤلاء كانوا أيضاً من رعايا خاقان الخزر، وهاجم في الوقت نفسه «الصنارية» التي كانت جماعة مسيحية تعيش في الجبال شمال تفليس[3]، وبعدما صد هؤلاء هجومه الأول بادروا إلى الاتصال مع كل من الخاقان، والامبراطور البيزنطي وحاكم الصقالبة[4] (السلاف)، ويبدو أنه ما من واحد من هؤلاء قد تدخل نتيجة لاستدعائه، بيد أن الذي استدعي وأعيد كان بغا، وهنالك رواية واحدة تقول أنه استدعي لأنه كان موضع اتهام لقيام روابط تآمر وخيانة بينه وبين الخزر، الذين وصفوا بأنهم كانوا من أبناء جلدته[5].

وكما سلف وأشرنا قام في سنة 833 رسول خزري بزيارة القسطنطينية ينشد عون البيزنطيين لبناء ساركيل، وفي أواخر القرن نفسه وصل رسول من عند الخاقان إلى الامبراطور ميخائيل الثالث، ربما في عام 860، بطلب من نوع آخر تماماً، فقد تساءل عن إمكانية إرسال رجل يمكنه شرح المسيحية[6]، وأشار البطريرك فوتيوس على الامبراطور إرسال تلميذه وربيبه قسطنطين[7]، ووافق ميخائيل على ذلك، ولعل فوتيوس قد أبدى اهتماماً شخصياً مباشراً ببلاد الخزر، لأنه كان ـ كما يظن ـ من أصل خزري، ويمكن لهذا الظن أن يقدم أفضل شرح لما شتمه به الامبراطور في يوم كان غاضباً فيه بقول: «الخزري الوجه»[8].

---

(1) البلاذري: 203.

(2) المؤرخ الجورجي نقلاً عن مرقوارت: 412.

(3) انظر مينورسكي، حدود العالم: 400...

(4) اليعقوبي: 2/ 598.

(5) المؤرخ الجورجي، المصدر نفسه.

(6) مرقوارت: 13... بري، الامبراطورية الرومانية المبكرة: 486ـ487. فرنادسكي، روسيا القديمة: 388.

(7) غالباً ما يدعي سيرل رسول الصقالبة (السلاف).

(8) سيمون الماجستير. ط. بون: 673.

وسافر قسطنطين إلى بلاد الخزر عبر القرم، وأقام مدة من الزمن في كيرسون يدرس لغة الخزر، أو تبعاً لرواية أخرى يدرس العبرية والسامرية[1] (؟) ثم ارتحل عبر طريق الدون ـ الفولغا[2] حتى أتل، وهبط إلى شاطئ بحر قزوين حتى لقي الخاقان[3]، ربما في سمندر[4]، وهناك أقيمت[5] مناظرة، عرضت على أنها جاءت بمثابة نصر للمحاجج المسيحي، وقد روي أن مائتين فقط هم الذين جرى تعميدهم، ومع أن قسطنطين قد ترك انطباعاً جيداً لدى الزعيم الخزري، فمن الواضح أن بعثته لم تكن ناجحة جداً، لذلك عاد بعد وقت قصير إلى القسطنطينية.

وقامت المناظرة الدينية بحضرة الخاقان بين يهود أجادوا معرفة الكتابات[6] المقدسة من جهة، وبين قسطنطين في الجهة المقابلة، ومن هذا كان زاتشكوسكي Zajaczkowski محقّاً فيما استخلصه أن اليهود وأتباعهم كانوا في القرن التاسع قوة هامة، لا بل حقيقة حاسمة في بلاط الخاقان، قال هذا وهو ـ يتبع دفورنك[7] Dvornik ـ حريص على أن يوضح أنه لا توجد إشارة مباشرة هنا إلى أن الخزر كانوا متحوّلين إلى اليهودية.

هذا ولابدّ من القول أنه لمن الصعب استخدام الروايات حول بعثة قسطنطين من أجل إظهار أن تحوّل الخزر إلى اليهودية لم يحدث إلا بعد تاريخ البعثة بوقت قصير، لأن سمات الخزر كأتراك متهوّدين كانت دائماً محفوظة في الذهن، ولعل هذا يعني أن تهوّدهم ـ كان بدون شك وقفاً في جميع الأحوال على جماعة صغيرة ـ كان دائماً مصطنعاً، كما أن القول أنهم كانوا عرضة للعودة إلى الوثنية يمكن أن يلقى دعماً بما جاء في رد يوسف عن قيام إصلاح ديني في حوالي سنة 800م، في ظل ملك جديد.

---

(1) انظري بري، الامبراطورية الرومانية المبكرة: 394. حاشية 6.

(2) المدعو باسم طريق الخزر (فرنادسكي، روسيا القديمة: 350، نقلاً عن فيتا قسطنطين السلافية).

(3) مرقوارت: 21 حيث نقل باختصار عن فيتا قسطنطين، حيث دعي فيها الخاقان باسم زاخارياس (لكن لا يوجد تأكيد لذلك في مكان آخر).

(4) يؤكد فرنادسكي (350) هذا بصورة قاطعة.

(5) أو سلسلة من الخلافات، انظر بري الامبراطورية الرومانية المبكرة: 395، الحاشية 2.

(6) ثقافة فصل 4.

(7) انظر الحاشية 129.

وعلينا أن نفترض أن زواراً مثل «آبو» من بغداد، وقسطنطين العالي الثقافة قد حصلا على انطباعات غير مرضية ولا مشجعة عن الأوضاع الوحشية لبلاد الخزر، لكن حتى لو صح هذا، فنحن لا نملك رواية مباشرة عما شاهده هذا الرجلان بالفعل في بلاد الخزر، ذلك أن آراءهما عن الخزر مع سجل أعمالهما بينهم، هو ما اختاره للكتابة، الذين تولّوا الترجمة لحياتهما، لا ما اختاراه شخصياً، وفي مواجهة توافق الروايات العربية والعبرية، لاسيما بعد تقصيّنا البحث، واتجهنا نحو تثبيت ما جاء بالعبرية، نجد أن الموقف السلبي الذي يمكن استخراجه من الروايات المتعلقة «بآبو» وقسطنطين حول تأخير تهوّد الخزر إلى سنة 861، له قيمة ضئيلة[1].

هذا ويتوجب علينا دراسة مسألة العلاقات الهامة، لكن المتداخلة بين الخزر والهنغار، والمعلومات الأساسية حول هذا الموضوع صادرة عن فصول قليلة من فصول كتاب «الإدارة الامبراطورية» لقسطنطين بورفي روجنتوس، وقد قال هذا المؤلف الامبراطوري: حدث قبل خمس وخمسين سنة ـ أي في سنة 893م، على افتراض أن الكتاب فد كتب في سنة 948م ـ أن هاجم الخزر، متحالفين مع الغزّ، البشناق، ودفعوهم من ديارهم الواقعة فيما بين نهري الفولغا والأورال[2]، وجرى تأكيد هذا التأريخ تقريباً بواسطة مصدر مستقل هو رينال أوف بروم Regnal of prum حيث أعطى سنة 889 تأريخاً لهجرة البشناق[3]، فقد مرّوا من خلال مناطق كانت حتى الآن محتلة من قبل «الترك»، وذلك حسبما دعي الهنغار بشكل متتابع من قبل المصادر الإغريقية، ويمكننا على هذا الأساس تفسير كلمة «مجر Magyars»، مع أنها كانت بدقة اسم واحدة من قبائلهم، وقد أرغم المجر بدورهم على الهجرة، وهذه هي التطورات نفسها التي شهدناها في تاريخ متقدم.

ويتحدث قسطنطين كما ولو أن المجر قد أرغموا على الانسحاب مرتين من قبل البشناق[4]، أولاً من ليبيديا Lebedia (اشتق هذا الاسم من اسم الزعيم المجري أو من اسم

---

(1) يحدد فرنادسكي وآخرون تاريخ التحول النهائي للخزر إلى اليهودية بعد عدة سنوات من هذا.

(2) الإدارة الامبراطورية: 37.

(3) مينورسكي، حدود العالم: 313، الحاشية 2.

(4) الإدارة الامبراطورية: 38.

فوفود ليبيدياس Voevod lebedias) إلى أتلكوزو ـ التي من المفترض أنها تعني «بلاد ما بين النهرين»[1] ـ ثم من أتلكوزو إلى المنطقة التي كانت محتلة قبل المجر في أيام قسطنطين (وأيامنا) على الدانوب الأوسط، ويزيدنا قسطنطين إطلاعاً أن المجر عندما كانوا في ليبيديا قاتلوا لمدة ثلاث سنوات إلى جانب الخزر كحلفاء لهم، وأن خاقان الخزر قد أعطى ليبيدياس سيدة خزرية نبيلة زوجة له، لكن هذه الزوجة لم تلد له أية أولاد.

وبعدما وطد المجر أقدامهم في أتلكوز، استدعى الخاقان ليبيدياس إلى تشلنديا Chelandia (كلنشا Kalancha) في القرم وعرض عليه تنصيبه حاكماً وحيداً (أرخون) لشعبه تحت سيادة الخزر، لكن ليبيدياس اقترح عوضاً عنه ألموتزس[2] Almutzes وأن هذا قد تنازل بدوره لابنه أرباد Arpad، ومهما يكن من أمر حمل أرباد أخيراً على ترس ـ تبعاً لعادات الخزر حسب قول قسطنطين ـ وأعلن ـ حسبما دعاه النص ـ زاكانوس[3] Zakanos، التي ربما عنت «ما دون الخاقان»[4]، لكن بعد بعض الوقت هاجم البشناق المجر ثانية ودفعوهم غرباً من أتلكوزو.

ولقد جرت عدة محاولات لإيضاح طبوغرافية وأخبار هجرات الهنغار ولتبيان العلاقات مع الخزر التي تتسم بالتداخل، أما عن أن هذه العلاقات كانت وثيقة في يوم من الأيام، لاشك في ذلك، ويخبرنا قسطنطين أن المجر قد التحق بهم قبل هجرتهم إلى هنغاريا الحالية ثلاث قبائل من شعب عرف باسم «الكابار»[5] Kabar من بلاد الخزر، وليس من الواضح تماماً فيما إذا كانت كلمة «كابار» تمثل صيغة اسمهم الأصلي، أو ما دعاهم به المجر؟ فلقد انتسبوا إلى جماعة كانت قد هزمت خلال حرب أهلية، ونجت إلى الأراضي الهنغارية، واستقرت هناك بوئام مع السكان المحليين، وأظهر «الكابار» أنفسهم أكثر حباً للمغامرة وميلاً

---

(1) مرقوارت: 33.

(2) أو سلموتز.

(3) يوائم قسطنطين هنا بين الممارسات بين الخزر وبين أتراك كوك (انظر الفصل الخامس، الحاشية 34) مع العادة القديمة في رفع القادة على الترسة تتويجاً لهم.

(4) بالنسبة لـ «زاكانوس» يقارن فرنادسكي (روسيا القديمة: 214) بالكلمة السلافية «زاكون» أي قانون.

(5) يكتب آخرون «كافار». انظر «كواري»في تاريخ سالزبورغ (نقلاً عن غريغوري «أصل الهنغار» Z. D.. M. G, B. 91 (1937): 640).

للقتال من الهنغار، واحتلوا المقام الأول بين قبائلهم، ويدعونا قسطنطين لنتصورهم على رأس المهاجرين في تقدمهم إلى هنغاريا الحالية، ولقد اتحدّ الشعبان اتحاداً وثيقاً، أو بالحري غدا «الكابار» مؤثرين إلى حد أن الهنغار تعلموا لغة هؤلاء القادمين الجدد وقد احتفظوا بها إلى أيام قسطنطين[1]، ومن الأدلة على أن الخزرية قد تكلم بها حتى منتصف القرن العاشر على الأقل، هو ما تأكدت منه الأبحاث في لهجة الـ «لير» التركية، التي من المفترض أنها كانت لهجة الحديث للخزر الكابار، وقيل إن آثارها مازالت واضحة في المجر[2].

وعلينا أن نتذكر أن امبراطورية الخزر كانت تغطي في القرن التاسع مساحات واسعة في الغرب، كما شملت عدداً من الجماعات الدافعة للجزية، وهكذا نقرأ في التاريخ الروسي[3] أن «البوليان polians» الذين كانوا يقطنون إلى الجنوب من منطقة الدينبر الوسطى، قد هوجموا في إحدى المرات من قبل الخزر، وذلك في منطقة الغابات والتلال الممتدة على طرف النهر وأجبروهم على دفع جزية، هي: سيف واحد عن كل موقد، ويقول هذا التاريخ إنَّ هذه السيوف من ذوات الحدين، وأنه عندما وصلت هذه المعلومات إلى حاكم الخزر وشيوخ القوم[4] باتوا قلقين لأن سيوف الخزر كانت ذات حد واحد.

وتشير الرواية هنا كما هو مفترض إلى تاريخ تقدم على سنة 859م[5]، وتبعاً لهذا التاريخ نفسه، دفع في هذه السنة: البوليان والسفيريان Severians والفيتشيان

---

(1) انظر الفصل 39.

(2) انظر:

Z. Combocl, Die bulgarisch - turkischen lehbuvorter. In dergarischen sprache, M. S. F, XXX 1912.

وجرى الآن رفض ذلك من قبل:

J. Benzing, «Die angeblichen bolgar-turkischen lehnuvorter Im ungarischen». Z. D. M. G., B. 98 (1944) 24-27.

(3) فصل 12.

(4) لم يرد ذكر وجود مجلس للشيوخ المسنين بين الخزر في مكان آخر، وعبارة «شيوخ بلادنا» الواردة في رد يوسف لها أهمية عامة فقط، وانظر مع ذلك الفصل الرابع، والفصل السابع.

(5) ويرى فرنادسكي (روسيا القديمة: 332) أن الخزر ظهروا للمرة الأولى قرب كييف في حوالي سنة 840.

Viatichians الجزية إلى الخزر: جلداً واحداً من الفراء عن كل بيت[1]، وهذا ومما لاشك فيه أن الخزر قد احتلوا كييف، فتبعاً للتاريخ الروسي دفع سكان هذه المدينة الجزية إلى الخزر قبل سنة 862م[2]، ولكن بعد أمد قصير وطد أولغ الروسي أركانه فيها، ولم يعد الخزر يمتلكون كييف، كما يبدو أنهم لم يحاولوا استردادها[3]، إنما مع ذلك ترك الخزر فيها آثاراً تدل عليهم، آثار احتاجت إلى وقت كبير حتى تختفي[4]، ويبدو أن من بين الشعوب السالفة الذكر ظل الفيتشيان ـ على الأقل ـ من رعايا الخزر حتى سنة 965م، عندما أخبر سفياتوسلاف Sviatoslav أنهم يدفعون إلى الخزر قطعة من النقود عن كل محراث[5].

وفيما يتعلق بهجرة المجر إلى هنغاريا في نطاق الظروف التي سلفت الإشارة إليها، وذلك في أواخر القرن التاسع، هناك إجماع عام، أما تاريخهم السالف فقد كان موضع نقاش، ويفترض مرقوارت أنهم وإن سبّبوا بعض المشاكل في الماضي للخزر (بنى هذا على إشارة غامضة وردت لدى ابن رسته فيها أن الخزر بنوا في يوم من الأيام سوراً، أو عملوا خندقاً ليدافعوا عن أنفسهم ضد المجر)[6] فقد أمكن منعهم عن طريق بناء ساركيل مما أفقدهم القدرة على إلحاق الضرر بجيرانهم.

وبما أن المجر قد كانوا مستقرين إلى الغرب من نهر الدون، فإنهم دخلوا تحت ظل حكم خاقان الخزر، وقد ذكرهم أحد المؤرخين في سنة 862م، و قد شرعوا بالظهور على

---

(1) المؤرخ الروسي، فصل 14.

(2) المصدر نفسه، فصل 15.

(3) المصدر نفسه، فصل 18.

(4) كان رجال كييف، تبعاً لملاحظات «الملك بيلا» (القرن الثالث عشر) قد هزموا من قبل المجر الذين كانوا بقيادة زعيمهم أولوم (فرنادسكي، روسيا القديمة: 332) ويبدو أن أولوم هو ألموش نفسه (أليش) وألموتزس عند قسطنطين بروفي، ويبدو أنه قد جرى الحديث عن قصر ألموش لدى المؤرخ الروسي، الفصل 18، على أنه موجود على رابية قرب كييف، كما أن كاتدرائية القديس الياس في كييف قد ربطت بالخزر لدى المؤرخ الروسي، فصل 27 وأتت أسطورة تأسيس كييف (فصل 15) على ذكر رجل اسمه خوريف أي ربما هو ريب مع إشارة إلى يهود الخزر (أنظر فرنادسكي، روسيا القديمة 233) وهنالك إشارة أخرى لارتباطهم بكييف أو بما عرف بباب الخزر.

(5) المؤرخ الروسي، فصل 32.

(6) انظر ما تقدم.

أطراف نهر الدانوب، لا بل حتى في داخل الأراضي الألمانية[1]، وحدث مرة من قبل، في حوالي 839م، أن جاء ذكرهم وهم مقيمون على أطراف الدانوب[2]، ويقول مرقوارت أن الحقبة المقابلة للسنوات 840 ـ 860م هي حقبة كان المجر فيها متحالفين مع الخزر، واشتركوا في حروبهم إلى جانبهم[3]، ولقد كان على قسطنطين أن يقول عشرين عاماً بدلاً من ثلاث سنوات، عن طول المدة التي كان فيها المجر يتبعون ـ وهم مقيمون في ليبيديا ـ الامبراطورية الخزرية، ثم دفعوا بشكل عنيف في حوالي سنة 860م من قبل البشناق، فتحولوا من غربي الدينبر إلى أتلكوزو، وامتدوا من الدينبر بعيداً حتى سيرث Sereth، وجاءت هذه العملية بمثابة ضربة قاسية جداً بالنسبة للخزر، وهي توضح لماذا كان من السهل على الروس توطيد أقدامهم في كييف، هذا ولم يكن الخاقان على استعداد للتخلي عن امبراطوريته في الغرب من دون صراع[4]، فهو لم يعد يخشى المجر، وقد رغب في تقويتهم ضد البشناق والروس، ولذلك قام بعدما وطدوا أقدامهم في أتلكوزو بحقبة وجيزة واستدعى ليبيدياس وعرض عليه تمليكه على المجر.

ويرى «بري Bury» بشكل عام الرأي نفسه[5]، في أن المجر قد هُجّروا من ديارهم في ليبيديا ـ وكانت منطقة واقعة بين نهري الدون والدينبر ـ من قبل البشناق الزاحفين من الفولغا، وقد توجهوا إلى أتلكوزو بين الدينبر وأطراف بروث pruth وسيرث الدنيا، وقد جاء أول استغلال لموقعهم الجديد بالقيام بغزو أوربا الوسطى في سنة 862م، كما سلفت الإشارة، ويحاجج «بري» أن هجرة المجر من ليبيديا لابد قد حدثت قبل 862 لكن بعد 860، عندما قيل قابل قسطنطين المجر المغيرين، وذلك عندما كان في طريقه من القرم إلى مملكة الخزر[6]، وتبعاً «لبري» فإن هذا يرينا أن المجر كانوا في ذلك التاريخ ما يزالون مقيمين

---

(1) مرقوارت: 33، نقلاً عن هنكمار الرهيمي.

(2) المصدر نفسه: 30.

(3) انظر الحاشية 156، السالفة.

(4) مرقوارت: 34.

(5) الامبراطورية الرومانية المبكرة: 423.

(6) انظر ما سلف.

في ليبيديا موطنهم القديم، ويقول قسطنطين بورفي رجنتوس، لقد قاتلوا وهم ما يزالون في ليبيديا إلى جانب الخزر لمدة ثلاث سنوات، لكن هذا برأي كل من «بري ومرقورات» وقت قصير جداً، وتبنى «بري» التصحيح الذي قام به وستبيرغ في رفع رقم ثلاث سنوات إلى ثلاث وثلاثين سنة، مفترضاً أن المجر ظلوا في ليبيديا ثلاثاً وثلاثين سنة، وأثبت بذلك تاريخ وصولهم من القوقاز فيما بين 822 - 826م[1].

زد على هذا أن بري ساير قسطنطين في قوله: تزوج ليبيدياس من سيدة خزرية نبيلة قبل الهجرة إلى أتلكوزو، وبعد هذه الحادثة بمدة وجيزة اتصل به الخاقان وعرض عليه جعله حاكماً على جميع القبائل السبع للهنغاريين، وهكذا أسس الخزر نظاماً ملكياً بين المجر، ثم علق على ذلك بقوله إنه لمن الصعب رؤية السبب الذي دفع حكومة الخزر إلى القيام بهذه المبادرة[2]، ويقترح ربط هذه البدعة بوصول «الكابار» من مملكة الخزر، ولم يقم «بري» التقدير لفكرة «مرقوارت» في أن هجرة المجر إلى أتلكوزو قد زادت من تعرض الخزر للخطر من قبل الروس، وأن هذه النقطة هي التي حسمت مسألة تعيين ملك هنغاري يأتي في مرتبة أدنى من الخاقان ويتبع له، كما أنه رفض ما ذهب إليه مرقوارت من أن سلالة الملوك من «أبراد» كانوا من أصل خزري من «الكابار»[3].

وهنالك رواية أخرى عن هذه التحولات الغامضة قدمها غريغوري الذي وجد أن المجر قد هزموا وحل محلهم البشناق، وأن هذا حدث مرة واحدة ربما فيما بين سنة 894 و897[4]، وكانت ديارهم قائمة فيما بين الدينبر وسيرث، وقد دعيت بشكل متغير ليبيديا وأتلكوزو، ولدى العودة إلى الفصل الثامن والثلاثين في كتاب قسطنطين نجده وكأنه يتحدث عن هجرات متتابعة، وفي الحقيقة يحوي هذا الفصل روايتين متميزتين عن بعضهما حول الحادثة نفسها،

---

(1) الامبراطورية الرومانية المبكرة: 419.

(2) المصدر نفس: 426.

(3) مرقوارت: 52 مع الحاشية. ويبدو أن الاقتراح ليس صحيحاً، وينقل مرقوارت في مكان آخر عن سيمون الكيزاوي: 2/ 1/ 19، وتبعاً لذلك كان ألموس (كذا) والد أرباد وأنه كان "De genere turul".

(4) هـ. غريغوري، أصل الهنغار 633 (1937) Z. D. M. G. B. 91.

ولذلك ليس من الضروري البحث عن موطن أقدم للمجر، أو لمحاولة إيجاد تاريخ لهجرتهم من ليبيديا إلى أتلكوزو، التي هي مخترعة، فتبعاً لغريغوري هنالك خطأ في قراءة "T" التي قرئت بمثابة «Treis»، ذلك أن T تعني ثلاثمائة، وهكذا وقع الخطأ حين قيل أن المجر تحالفوا مع الخزر لمدة ثلاث سنوات في ليبيديا - أتلكوزو، وفي الحقيقة ظل المجر ثلاثمائة سنة متحالفين مع الخزر، وقد قاتلوا إلى جانبهم، «في جميع حروبهم» حسبما قال قسطنطين».

وهكذا يغدو من السهل إيضاح كيف أن المجر قد استطاعوا الإغارة على أوربا الوسطى في سنة 830، وثانية في سنة 862، فنادراً ما نسمع عنهم قبل هذا، لكن هذا لا يمنع من القول أنهم كانوا في أحواز المنطقة نفسها في ظل السلطة الخزرية لمدةطويلة، كما قال غريغوري، هذا ويلاحظ في المقابل أنه يبدو أن المنطقة القائمة بين الدينبر وسيرث، وهي الديار التي سكنها المجر خلال الحقبة كلها، كانت موغلة باتجاه الغرب، ويقبل فرنادسكي، واستناداً إلى شواهد أثرية وإلى أسماء الأماكن أن المجر كانوا في جنوبي روسيا لمدة طويلة، ويرى أنهم تمركزوا في مناطق متعددة خلال أوقات مختلفة[1]، ويشير إلى أنه من المحتمل كثيراً أنهم قدموا من منطقة القوقاز إثر طرد البلغار (أونوغندور Onogundurs) من قبل الخزر في القرن السابع، وبناء عليه يرى أن رقم «الثلاثمائة سنة» رقم تقريبي فقط، كما أنه لا يشك في أن عملية تصحيح الرقم سليمة[2].

---

(1) فرنادسكي، روسيا القديمة: 24 ـ 242.

(2) لابد أن العلاقات بين المجر والبلغار كانت في وقت من الأوقات وثيقة. فلقد احتفظت إحدى القبائل البلغار باسم Koutourgernat-ou حتى تاريخ متأخر إلى أيام قسطنطين بورفي في القرن العاشر، وهذا يقتضي الشرح (انظر مينورسكي، حدود العالم: 319) حيث يبدو أن هذا الاسم هو اسم كوتريغور نفسه... إلخ، الذي ظهر بين البلغار (الفصل الثالث) وجاء اسما مجر وبشكير (وبشغيرد) من بعض الجوانب متبادلان (انظر مرقوارت: 68) وورد ذكر رأي نميز من قبل مينورسكي (حدود العالم: 318) من أن الأخيرين كانوا بالأصل من قبيلة بلغارية هاجرت شمالاً من بلاد القوقاز (انظر ما يلي) وتبعاً لمورافستك (مينورسكي (المصدر نفسه) حدث هذا في الوقت الذي دفع فيه الأونوغوندور باتجاه الغرب (انظر الفصل الثالث) ودعي الحاكم المحلي لبلغار الفولغا في أيام ابن فضلان (310/ 922) كما يبدو أليش الذي لابد أنه اسم ألموتزس المجري نفسه، مع أن الأصل التركي للمجر مرفوض (انظر Jszinnyei, die herkunftder 1923ungarn) ولابد أن خلافاً شديداً قائماً في هذا، في أن الجزء الأعظم من البلغار قد انسحبوا من بلاد الخزر فتحرروا في تاريخ مبكر من تأثيرهم وذلك قبل المجر، فهناك ما لا يقل عن مائتي سنة بين التحرك غرباً للشعبين.

وبات علينا أن نقدر أن إشارات قسطنطين الواردة في الفصل الثامن والثلاثين من كتابه، والتي سلفت الإشارة إليها، تفيد أنه عندما هزم البشناق المجر، وهاجموا بلادهم، ذهب قسم من هؤلاء المجر مهاجرين نحو بلاد فارس، وهذا القسم هو الذي احتفظ باسم المجر القديم وهو «سبرتي ـ أسفلي» وهو اسم كانوا جميعاً يعرفون به من قبل، كما لابد أن هنالك بعض العلاقات بين السبرتي (السفرتي) والساوردية الذين نهبوا في حوالي سنة 765 شمكور في جنوبي القوقاز[1]، ومع هذا فإننا نقرأ عن خروج هؤلاء نحو بلاد فارس فقط بعد هزيمتهم من قبل البشناق، وذلك مع نهاية القرن التاسع، وعلى هذا هل يتوجب علينا تعديل نظرية غريغوري على أساس قوله: إن البشناق قد هزموا المجر مرة واحدة في حوالي 896؟ إن هؤلاء القوم كانوا قد هزموا من قبل، وانشطروا إلى شطرين وأجبروا على مغادرة أراضيهم من قبل شعب آخر[2]؟. وتبعاً لقسطنطين كان الشعب الذي هزم المجر، وأجبر شطراً منهم على الذهاب شرقاً هو الذي عرف باسم الكنغار الذين كانوا أشجع قبائل البشناق[3]، وعدّ غريغوري أن «الكنغار» هم القبائل الخزرية التي عرفت باسم «كابار» وقد قدم أدلة متماسكة لإزالة هذا الخلاف[4]، فهل على هذا توجه «السبرتي ـ أسفلي» نحو بلاد فارس بعد الهزيمة من قبل الـ «كابار» في حوالي عام 760م؟ وإنه لمن المغري حقاً أن نرى في هجوم الـ «كابار» الذي أجبرهم على الهجرة من بلاد الخزر ـ كما أخبرنا قسطنطين ـ علاقة ما بتحول الفئة الحاكمة في بلاد الخزر إلى اليهودية في حوالي عام 740م[5]، لكن ما لم تكن هزيمة المجر قد حدثت بعد عام 760 بوقت مديد فإن «أبراد» الذي أصبح «بعد ذلك بوقت قصير» أول ملوك المجر لا يمكن أن يكون لديه أحفاد أحياء في أيام قسطنطين في حوالي عام 950، ذلك أنه بالنسبة لحقيقة وجود اثنين من أحفاد «أبراد» أحياء

---

(1) البلاذري: 203. انظر أيضاً المسعودي مروج: 2/ 57، سيواردیه، ووقعت هذه الحادثة في الأيام التي غادر فيها يزيد بن أسيد (انظر ما سلف) أرمينية.

(2) فرنادسكي (روسيا القديمة: 271) في محاولة لإجابة هذا السؤال بإثباته على الشماليين لكن ما قاله غير مقنع.

(3) الإدارة الامبراطورية: فصل 37.

(4) المصدر نفسه: 638.

(5) الإدارة الامبراطورية: فصل 38.

في ذلك التاريخ ليس هنالك أدنى شك معقول[1]، وبناء عليه إن الحوادث التي تكلم عنها قسطنطين من الصعب ربطها مع غارة «الساروديه» في عام 760 أو حولها، وهذا يؤكد فقط وجود المجر في القوقاز أو على مقربة منها في تلك الآونة[2]، وأنه لا علاقة لهم بأية هزيمة لحقت بأقربائهم في سهوب روسيا، وبالنسبة لخروج هذا الشعب بالذات نحو «بلاد فارس» الذي قال قسطنطين إنه حدث فيما بعد، يبدو أن أخباره لم ترد في المصادر الإسلامية.

أما بالنسبة للملكية بين المجر، فقد وجد غريغوري أن سبب تعيين «أبراد» ليس ما ورد في الفصل الثامن والثلاثين من كتاب «الإدارة الإمبراطورية»: من أنه إما أن زوجة ليبيدياس الخزرية لم تلد له ولداً، أو أن ليبيدياس رفض لسبب خاص به، كافتراضنا مثلاً أن عزته وإباءه منعاه من قبول التبعية، بل إن السبب في ذلك هو أن ليبيدياس قد أزيح ووضع جانباً لأنه أخفق أمام سيمون البلغاري عندما استدعاه الامبراطور ليو السادس لحربه[3]، ويعارض هذه المقولة أن قسطنطين قد ذكر بشكل واضح أن ليونتس Liuntis هو الذي قاد الحملة المخفقة ضد سيمون، وأن هذا كان ابن أبراد، ولم يشكك «بري» في هذه القرابة[4]، كما ويرجح أن ليبيدياس لم يعد وقت الحملة (895) قائداً للمجر، وإذا افترضنا ـ كما يقول غريغوري ـ أن الطرد النهائي للمجر من أتلكوزو كان في سنة 896، فإن البشناق ـ إذا أمكن الاعتماد على رينالد أوف برم ـ كانوا قد ظهروا في عام 889، وعلى هذا يكون الوقت المناسب لتدخل الخزر المباشر (نحن نفترض أن «الكابار» كانوا التحقوا بالمجر في وقت ما أبكر) قد جاء بعد هجوم البشناق الأول، وذلك ليس أبعد من سنة 890، أو 891، وخلاصة الأمر: كان على هذا أبراد وليس ليبيدياس هو الزعيم منذ ذلك التاريخ، وبناء عليه لدينا بعض التحفظات تجاه ما قاله غريغوري، لكن يبدو على العموم ـ بما أن قسطنطين قد تحدث عن هجرة واحدة كبيرة للمجر ـ أن رأيه كان لاشك صحيحاً.

---

(1) ذكرت أسماؤهم في الإدارة الامبراطورية.

(2) جاء ذكر المجر ووجودهم في منطقة القوقاز في حدود العالم (صنف 372/ 982): «فصل».

(3) المصدر نفسه: 635 ـ 636.

(4) الإدارة الامبراطورية: فصل 40، الامبراطورية الرومانية المبكرة: 490.

ويمكننا أن نستخرج بعض المقتطفات الهامة من كتاب مروج الذهب، وهو كتاب المسعودي الرئيسي الذي وصلنا، وقد سلفت الإشارة إليه مراراً في الفصول الماضية، وكان المسعودي قد شرع في تصنيف كتابه هذا سنة 332هـ/ 943م وأكمله سنة 336هـ/ 947م[1]، وعلى هذا أمكن للمسعودي الحديث عن الحملة الروسية داخل منطقة بحر الخزر في بداية القرن الرابع للهجرة، لكنه لم يعرف شيئاً عن الهجوم المفجع الذي تعرضت له عاصمة الخزر فيما بعد[2]، ويقول المسعودي:

«ويتأذى أهل الباب والأبواب من مملكة يقال لها خيذان[3]، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر[4]، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام[5] من مدينة الباب يقال لها سمندر[6]، وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر، وذلك أنها

---

(1) بروكلمان تاريخ الأدب العربي: 1/ 145. التاريخ 332/ 943. انظر الفصل الخامس.

(2) انظر الفصل التاسع.

(3) ليس جيدان كما ورد في طبعة باريس، انظر الفصل الرابع. وتبعاً للمسعودي (مروج: 2/ 39) كانت خيذان أكثر ممالك القوقاز شراً، لكنها لم تتمكن من إخضاع بعض العرب الذين عاشوا مستقلين بينها وبين باب الأبواب منذ الفتح، ومع أن ملك خيذان كان مسلماً ادعى النسب العربي، فقد حمل لقب سيفن الذي يبدو أنه كان تركياً (خزرياً)، وقارن مينورسكي (حدود العالم: 449، الحاشية 4) بينه وبين اللقب سليفا الوارد في المصادر الصينية، وذلك نقلاً عن شافانس، الوثائق.

(4) استخدمت الفقرة ذاتها، «داخله في جملة ملك الخزر»، تحت البرطاس وجاء في ط. باريس كلمة «ملوك» بدلاً من «ملك» والقراءة الصحيحة موجودة في مخطوطة البودليان، مارش 243، (انظر الفصل الخامس، الحاشية الأولى).

(5) كانت المسافة بين سمندر وباب الأبواب أربعة أيام فقط، وذلك تبعاً للاصطخري (219) ويصح هذا لو أن سمندر هي قزلار على نهر الترك (الفصل الخامس ـ الحاشية 26).

(6) أعلن المسعودي في التنبيه (62) أن بلنجر كانت عاصمة الخزر، وقدم ياقوت (معجم البلدان مادة سمندر) المعلومات نفسها الموجودة هنا حيث نقل عن الأزهري يعني أبو منصور محمد بن أحمد كان موجوداً 370/ 980 (بروكلمان، تاريخ آداب اللغة العربية: 1/ 129) في حين أن نصير الدين الطوسي (J. Greaves Binae tabulae, 13) يتفق مع ما جاء في التنبيه في أن بلنجر كانت العاصمة، انظر الفصل الثالث.

افتتحت في بدء الزمان، افتتحها سلمان بن ربيعة الباهلي[1] رضي الله تعالى عنه، فانتقل الملك عنها إلى مدينة أتل[2]، وبينها وبين الأولى سبعة أيام[3]، وأتل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغر، وتصب في بحر مايطس[4]، ولهذه المدينة جانبان، وفي وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك[5]، وقصر الملك في طرف هذه الجزيرة[6]، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن، وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصاري واليهود والجاهلية[7].

وأما من في بلاده من الجاهلية فأجناس: منهم الصقالبة[8]، والروس، وهم في أحد جانبي هذه المدينة، ويحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلي، وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي في الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل، وإن مات منهم أعزب، زوج بعد وفاته، والنساء يرغبن في حرق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهن الجنة[9]، وهذا فعل من أفعال الهند. على حسب ما ذكرنا آنفاً، إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى ذلك المرأة.

---

(1) يبدو أنه لا يوجد شيء في المصادر حول هجوم على سمندر من قبل سلمان بن ربيعة، انظر من أجل إنجازاته الفصل الثالث.

(2) جاء في ط. باريس آمل بدلاً من أتل وهو خطأ تكرر وروده.

(3) كذلك الاصطخري 219. وعنده في مكان آخر (22) المسافة بين أتل وسمندر ثمانية أيام.

(4) الفرع على الدون.

(5) يتوافق المسعودي مع ما جاء في رد يوسف في أن خاقان الخزر عاش في جزيرة.

(6) ليس من الواضح فيما إذا كان المعني بناء آخر.

(7) يلي هذا إشارة إلى اليهود كخزر. وقدم هذا في بداية الفصل الخامس.

(8) زكي وليدي (ابن فضلان: 295 ـ 331) حيث أظهر أن كلمة صقالبة لا تعني السلاف بل تطلق على الأتراك، وعلى الفنلديين، لا بل حتى على الشعوب الجرمانية، انظر الفصل السادس حيث استخدمت كلمة صقالبة لتعني السكسون.

(9) قدم ابن فضلان (87 ـ 92) رواية شاهد عيان وصفت أحد الطقوس التي أقيمت إثر وفاة واحد من زعماء الروس على الفولغا في بلاد البلغار.

والغالب في هذا البلد المسلمون، لأنهم جند الملك[1]، وهم يعرفون في هذا البلد بالأرسية[2]، وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم، وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع في بلادهم جدب ووباء، فانتقلوا إلى ملك الخزر، وهم ذوو بأس وشدة، وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه، وأقاموا في بلده على شروط بينهم: أحدها إظهار الدين، والمساجد، والأذان، وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم[3]، والوزير في وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه[4]، وثالثها أنه متى كان ملك الخزر في حرب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار، ويركب منهم مع الملك في هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف[5] ناشب، بالجواشن، والدروع، والخوذ، ومنهم رامحة أيضاً على حسب ما في المسلمين من آلات السلاح، ولم قضاة مسلمون، ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة[6]: اثنان منهم للمسلمين واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية[7]، وواحد منهم

---

(1) من أجل عبارة مماثلة انظر الاصطخري (الفصل الخامس) وما يلي.

(2) جاء في طبعة باريس أشكال متعددة مثل: لارسيه ولاريسيه وأرسيه وأريسيه إلخ، ومن الطبيعي مقارنة كلمة «آس» فآس هو الاسم الذي أطلق أخيراً على اللان (ليس من عصر الغزو المغولي، بل قبل ذلك منذ القرن التاسع مرقوارت: 172). انظر الفصل الخامس، الحاشية 21.

(3) المسعودي ربما بالغ هنا، انظر ما يلي.

(4) أو «غويه» «كويه».

(5) انظر الأرقام لدى الاصطخري وابن رسته المعطاة في الفصل الخامس، ومن جانب آخر الأعداد الأكبر أيام الحرب التي ذكرها المؤرخون المسلمون.

(6) انظر الاصطخري المصدر نفسه وتبعاً لحدود العالم (50) كان لدى الملك في بلدة أتل سبعة قضاة رجعوا إلى سبعة أديان، واستخدم الاصطخري كلمة «حكيم» و«حكام» في حين استخدم المسعودي كلمة «قضاة».

(7) سوء فهم، لعل المقصود بعض الطقوس اللاهوتية مثل التنبؤ عن طريق الكبد في روسيا (بلاتونوف الطقوس الروسية: 521).

للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية وهي قضايا عقلية[1]، فإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام[2].

وليس في ملوك الشرق في هذا الصقع من له جند مرتزقة غير ملك الخزر، وكل مسلم من تلك الديار يعرف بأسماء هؤلاء القوم الأرسية، والروس والصقالبة الذين ذكرنا أنهم جاهلية هم جند الملك وعبيده[3]، وفي بلاده خلق[4] من المسلمين تجار وصناع من الأرسية، فروا إلى بلاده لعدله وأمنه، ولهم مسجد جامع، والمنارة تشرف على قصر الملك، ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن، فإن اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة[5].

قال المسعودي: وليس إخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان، وذلك أن للخزر ملكاً يقال له خاقان، ورسمه أن يكون في يدي ملك آخر هو وغيره، فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب[6] ولا الظهور للخاصة ولا للعامة، ولا الخروج من مسكنه، معه حرمه، لا يأمر ولا ينهى، ولا يدبر من أمر المملكة شيئاً، ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلاّ بخاقان يكون عنده في دار مملكته، ومعه في حيزه، فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبة، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم، أو فاجأهم أمر من الأمور، نفرت الخاصة

---

(1) إن الكلمات المستخدمة هي: قضايا وأقليه. انظر ابن فضلان (20) حيث قال عن الغُزّ «لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل».

(2) تأكد هذا بالقضية التي ذكرها ابن حوقل، انظر ما يلي.

(3) لقد اعتمدت النص بدلاً من الترجمة لطبعة باريس مع بعض التردد متبنياً كلمة «وهم» بدلاً مما جاء بالكتاب «هم».

(4) مخطوطة البودليان (الحاشية 184) حيث زادت «كثير».

(5) انظر ما يلي في الاقتباس من المسعودي.

(6) مرد هذا إما إلا مغالاة أو أنه يشير إلى عادة في العصور المتأخرة، ومهما يكن من أمر فإن الاصطخري مثله مثل رد يوسف يشيران إلى أن الخاقان شارك بالأعمال العسكرية.

والعامة إلى ملك الخزر[1] فقالوا له: قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه، وقد تشاء منا به، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله، فربما سلمه إليهم فقتلوه[2]، وربما تولى هو قتله، وربما رقّ له فدافع عنه، لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه [هذا رسم الخزر في هذا الوقت]، فلست أدري: أفي قديم الزمان كان ذلك أم حدث، وإنما منصب خاقان هذا من أهل بيت بأعيانهم، أرى أن الملك كان فيهم قديماً، والله أعلم[3].

وللخزر زوارق[4] يركب فيها الركاب التجار في نهر فوق المدينة يصب إلى نهرها من أعاليها يقال له برطاس، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ممالك الخزر، وعمائرهم متصلة بين مملكة الخزر والبلغر، ويرد هذا النهر من نحو بلاد البلغر والسفن تختلف فيه من البلغر والخزر.

والروس: أمم كثيرة وأنواع شتى، ومنهم من يقال له اللوذغانية[5]، وهم الأكثرون، يختلفون إلى بلاد الأندلس، ورومية، وقسطنطينية، والخزر، وقد كان بعد

---

(1) انظر ما يمكن أن يكون مثالاً على هذا فيما تقدم عندما وجهت خاتون الخزر نداء للتجمع العام.

(2) تبعاً لابن فضلان (الفصل الخامس) كان بإمكان الخاقان في بعض المناسبات خلع البك أو قتله.

(3) تحدث زكي وليدي مطولاً عن الملك المزدوج (ابن فضلان: 292 ـ 295، و257 و272 أيضاً) كمؤسسة قائمة لدى القراخانية، والآفار، وقارن ذلك لدى الشعوب غير التركية مثل الشوغون إلى جانب الميكادو في يابان العصور الوسطى، ونبه ششتر أيضاً إلى التشابه بين خاقانية الخزر والميكادو (الربعية اليهودية: 3/ 189) ويخطر بالبال أيضاً الملك المزدوج في أسبارطة، وعلل حديثاً ألفولد مسألة الملك المزدوج بنظرية مفادها أنه وجد بين الشعوب البدوية بحكم قيادة جناحي القطيع، فهذا أدى إلى شطر القبائل، وقد لاقت هذه النظرية قبولاً واسعاً. انظر الفصل السادس.

(4) زواريق (ج زروق) ولا يمكن أن نعدّ هؤلاء مراكب صغيرة، لأن بعض الحنابلة قد نقلوا من بغداد إلى عمان في زورق في سنة 321هـ (ابن الأثير: 8/ 68) انظر ما يلي.

(5) كذلك في مخطوطة البودليان، وجاء في طبعة باريس «لوذانه» أي Lithuanians، وقد قرأها مرقوارت دوماً «اللوذغانه» وبحث (342 ـ 353) عن إمكانية شرح الكلمة التي ترد ثانية لدى المسعودي (التنبيه: 141) «الكوذكانه» (ويقترح دي غويه لكلمة كوذ كانه أن تقارن بغوتلاند) واستهدف مرقوارت إيجاد علاقة بينها وبين الراذانيه (انظر الفصل السادس الحاشية 69) لكن مينورسكي يبدو مصيباً بتعريفه لهذه الكلمة الصعبة على أنها تساوي «الأوردمانية» أي أهل الشمال (الموسوعة الإسلامية. مادة روس) وجاء في مخطوطة ليدن رقم 537 أ (انظر مرقوارت: 330) اللوذائية وقد اعتمدت هذه القراءة مرة أو مرتين.

الثلاثمائة [912 ـ 913م] ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب، في كل مركب مائة نفس، فدخلوا خليج نيطس[1] المتصل بنهر الخزر[2]، وهنالك رجال ملك الخزر مرتين بالعدد القوية[3] يصدون من يرد من ذلك البحر، ومن يرد من ذلك الوجه من البر الذي هو شعبة من نهر الخزر[4] تتصل ببحر نيطس، وذلك أن بوادي الترك الغُزّ ترد إلى ذلك البر وتشتي هنالك، فربما يجمد هذا الماء المتصل من نهر الخزر إلى خليج نيطس، فتعبر الغُزّ عليه بخيولها، وهو ماء عظيم، فلا ينخسف من تحتهم لشدة استحجاره، فتغير على بلاد الخزر[5]، وربما يخرج إليهم ملك الخزر إذا عجز من هنالك من رجاله المرتبين عن دفعهم ومنعهم العبور على ذلك الجمد، وأما في الصيف فلا سبيل للترك إلى العبور.

فلما وردت مراكب الروس إلى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج، راسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا البلاد وينحدروا في نهره فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما من بلاد الأعاجم على ما ذكرنا، فأباحهم ذلك، فدخلوا الخليج[6] واتصلوا بمصب النهر فيه[7]، وساروا مصعدين في تلك الشعبة من الماء، حتى وصلوا إلى نهر الخزر، وانحدروا فيه إلى مدينة أتل [واجتازوا بها وانتهوا إلى فم النهر ومصبه إلى البحر الخزري، ومن مصب النهر إلى مدينة أتل] وهو نهر عظيم وماء كثير.

فانتشرت مراكب الروس في هذا البحر، وطرحت سراياها إلى الجيل[8]، والديلم، وبلاد طبرستان، وآيسكون، وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة، ونحو بلاد

---

(1) يعني الكيرتشي.

(2) اقرأها هكذا وليس «بحر الخزر» كما جاء في مخطوطة البودليان وطبعة باريس «نهر الخزر بدلاً من بحر الخزر» واهتم المسعودي (مروج الذهب: 1/ 273) في إظهار أنه لا توجد علاقة بين البحر الأسود (نيطس) وبحر قزوين (بحر الخزر).

(3) يبدو أن المقصود تمتارخا وليس سركيل.

(4) المفرد هو المطلوب يعني دونه «فرع من الماء».

(5) يبدو أن المسعودي يريد أن يقول أن الحصن الخزري كان معرضاً للهجوم من جانب البر من قبل الغز قبل وصولهم إلى الأراضي الخزرية، وهذا أمر ممكن لو أن المقصود حصن نهر الدون، مرقوارت 341.

(6) يقترح مرقوارت: 335 أن الروس قد أبحروا نزولاً من الدينبر وحول القرم.

(7) أي من الدون.

(8) أو جيلان.

أذربيجان، وذلك أن من بلاد أردبيل من بلاد أذربيجان إلى هذا البحر نحو ثلاثة أيام، فسفكت الروس الدماء، واستباحت النسوان والولدان، وغنمت الأموال، وشنت الغارات، وأخربت، وأحرقت، فضج من حول هذا البحر من الأمم، لأنهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدواً يطرقهم فيه، وإنما تختلف فيه مراكب التجار، والصيد[1]، وكانت لهم حروب كثيرة مع الجيل والديلم [وساحل جرجان، وبعض أهل برذعه، وأران والبيلقان، وأذربيجان[2]] ومع قائد لابن[3] أبي الساج، فانتهوا إلى ساحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة بباكة، وكانت الروس تأوي عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر تقرب من النفاطة على أميال منها، وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم[4]، فاستعد الناس، وركبوا في القوارب، ومراكب التجار، وساروا نحو تلك الجزائر، فمالت عليهم الروس، فقتل من المسلمين وغرق ألوف، وأقام الروس شهوراً كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم، والناس متأهبون لهم، حذرون منهم لأنه بحر غامر لمن حوله من الأمم.

فلما غنموا وسئموا ما هم فيه ساروا إلى فم نهر الخزر ومصبه، فراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم [على ما اشترط عليهم]، وملك الخزر لا مراكب له، وليس لرجاله بها عادة[5]، ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم آفة عظيمة، وعلم بشأنه الإرسية ومن في بلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر: خلنا وهؤلاء القوم فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين، وسفكوا الدماء، وسبوا النساء والذراري، فلم يمكن الملك منعهم، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم، وعسكروا، وخرجوا

---

(1) كانت هنالك حملة روسية سالفة إلى بحر قزوين.

(2) جاءت قراءة هذه الكلمات في طبعة القاهرة لسنة 1303هـ على هامش ابن الأثير.

(3) أبو القاسم يوسف بن أبي الساج توفي 315/ 928 (زمباور 179).

(4) قتل فيما بعد في حرب ضد الخزر (مينورسكي، حدود العالم: 406 نقلاً عن أحمد بن لطف الله، منجم باشي، صحائف الأخبار: 3/ 174، ترجمة تركية مختصرة ـ استانبول 1285/ 1868) واستخدم مصنف كتاب «جامع الدول» وهو مصنف متأخر (توفي سنة 1113/ 1702) كتاب تاريخ باب الأبواب الذي يعود إلى القرن العاشر، أو الحادي عشر.

(5) يعني هذا عدم وجود أسطول في بلاد الخزر، انظر الفصل الثامن.

يطلبونهم منحدرين مع الماء[1]، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها، وصافوا المسلمين، وكان مع المسلمين خلق من النصارى المقيمين بمدينة أتل، وكان المسلمون في نحو خمسة عشر ألفاً بالخيل والعدد، فأقام الحرب بينهم ثلاثة أيام، ونصر الله المسلمين عليهم، وأخذهم السيف: فمن قتيل، وغريق، ونجا منهم خمسة آلاف، وركبوا في المراكب إلى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر، فمنهم من قتله أهل برطاس، ومنهم من وقع إلى بلاد البلغر إلى المسلمين فقتلوهم، وكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطئ نهر الخزر نحواً من ثلاثين ألفاً[2]، ولم يكن للروس من تلك السنة عودة إلى ما ذكرنا[3].

ويلي بلاد الخزر، واللان فيما بينهم وبين المغرب أمم أربع: ترك ترجع إلى أب واحد في بدء أنسابهم، حضر، وبدو، وذو منعة وبأس شديد، لكل أمة منها ملك، مسافة مملكته أيام، متصلة ممالكهم بعضها ببحر نيطس، وتتصل غاراتهم بمدينة رومية، وما يلي بلاد الأندلس، مستظهرة على سائر ما هنالك من الأمم، وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة، وكذلك مع صاحب اللان، وديارهم تتصل ببلاد الخزر، فالجيل الأول منهم يقال له بجني، ثم تليها أمة ثانية يقال لها[4] بجغرد [بشكلي]، ثم تليها أمة يقال لها بجناك [بشناق] وهي أشد هذه الأمم الأربعة بأساً، ثم تليها أمة ثانية يقال لها نوكرده[5]، وملوكهم بدو.

وكان لهم حروب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة[6]، أو فيها، وقد كان للروم في تخوم أرضهم فيما يلي من ذكرنا من هذه الأجناس الأربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها

---

(1) يعني على البر.

(2) بالنسبة للرقم الأصيل للروس (50 ألف) عدّ هنا 35 ألفاً.

(3) لا يعرف المسعودي شيئاً عن الحملات الروسية المتأخرة لعامي 943 و965، انظر من أجلهم الفصل التاسع.

(4) من المفترض أن المقصود هنا المجر، انظر ما تقدم.

(5) ربما بالنسبة للومبارديين، انظر «أنقيرده» (ابن عبد البر، كتاب القصد والأمم، ط القاهرة 1350: 28) «التكبر دينيه» (ابن رسته: 128) لكن مرقوارت يسأل ماذا كان يعمل اللومباديون مع البشناق والمجر.

(6) يعطي ابن الأثير الذي تابع المسعودي سنة 322/ 934 وتبعاً جرجيوس موناخوس اجتاح المجر في عام 934 تراقيا ووصلوا حتى مدينة القسطنطينية (نقلاً عن مرقوارت: 64).

ولندر[1]، وفيها خلق من الناس ومنعة بين الجبال والبحر، فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الأمم، ولم يكن لهؤلاء الترك سبيل إلى أرض الروم لمنع الجبال والبحر إياهم، ومن في هذه المدينة.

وكان بين هؤلاء الأجناس حروب لخلاف وقع بينهم على رأس رجل مسلم تاجر من أرض أردبيل: كان نازلاً على أرض بعضهم، فاستضافه ناس من الجبل الآخر، فاختلفت الكلمة[2]، وأغار من في ولندر من الروم على ديارهم وهم عنها خلوف، فسبوا كثيراً من الذرية، وساقوا كثيراً من الأموال، ونمى ذلك إليهم وهم مشاغيل في حربهم، فاجتمعت كلمتهم، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء، وعمد القوم جميعاً نحو مدينة ولندر، فساروا إليها في نحو ستين ألف فارس، وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمع، ولو كان ذلك لكانوا في نحو مائة ألف فارس، فلما نمي خبرهم إلى أرمنوس ملك الروم في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ سير إليهم اثني عشر ألف فارس من المتنصرة على الخيول بالرماح في زي العرب، وأضاف إليهم خمسين ألفاً من الروم، فوصلوا إلى مدينة ولندر، في ثمانية أيام، وعسكروا وراءها، ونازلوا القوم، وقد كانت الترك قتلت من أهل ولندر خلقاً (كثيراً) من الناس، وامتنع أهلها بسورهم إلى أن أتاهم هذا المدد، ولما صح عند الملوك الأربعة من سار إليهم من المتنصرة والروم بعثوا إلى بلادهم فجمعوا من كان قبلهم من تجار المسلمين ممن يطرأ إلى بلادهم من نحو بلاد الخزر، والباب، واللان، وغيرهم، وفي هؤلاء الأجناس الأربعة من قد أسلم، وهم غير مخالطين لهم إلا عند حروب الكفار، فلما تصاف القوم وبرزت المتنصرة أمام الروم خرج إليهم من كان قبل الترك من التجار (المسلمين) فدعوهم إلى ملة الإسلام، وأنهم وإن دخلوا في أمان الترك أخرجوهم من بلادهم إلى أرض الإسلام، فأبوا ذلك، وتواقف الفريقان في ذلك الوقت». ثم تحدث المسعودي عن نجاح الترك واستيلائهم على ولندر وظهورهم في أطراف القسطنطينية قبل بلوغهم وتوزعهم بحثاً عن الغنائم.

---

(1) انظر ما يلي.

(2) أن وجود تجار من الأراضي الإسلامية في شرقي أوربا ووسطها أمر مؤكد، انظر ما يلي (ابن حوقل) والفصل الثامن.

ولقد سلف لنا أن تناولنا بالبحث بشكل واف في الفصول الأخرى محتويات الجزئين الأول والثاني من نص المسعودي، وعلينا أن نقول شيئاً ما حول الجزء الثالث، ويتعلق هذا الجزء بشكل رئيسي بالهجوم على بلاده ولندر في حوالي سنة 320هـ/ 932م من قبل أربع قبائل تركية، ويقول المسعودي في كتابه (التنبيه)[1] تقع بلدة ولندر على الطرف الشرقي لحدود الامبراطورية البيزنطية، وقد أعطت اسمها إلى القبائل التركية التي كانت تعيش في أحوازها وهم الذين كانوا يعرفون باسم الولندرية، وأحصى بينها القبائل التركية الأربع، كما جاء في نصه المنتزع من كتابه مروج الذهب.

ويبدو أن علينا أن نتصور أنه بعدما استولت هذه القبائل على ولندر ـ حسبما جاءت الرواية في نهاية النص المنقول ـ أصبحت تعرف بالولندرية، وواضح تماماً من نصّي (المروج والتنبيه) أن المسعودي كان يفكر برجال القبائل الترك وهم يعملون على الجانب الأوربي من البوسفور، وفي داخل وسط أوربا، لكن بينما هنالك أرضية لربطها بـ «وندر ـ وبنر ـ ونتر»[2] W - n - n d - r. w - b - n d - r. w - n - n t - r في منطقة القوقاز، يبدو من غير الممكن أن العمليات الحربية التي وصفها المسعودي قد وقعت هناك[3]، واقترح غريغوري أن ولندر هي أدرنه[4] (استولي عليها البلغار في سنة 923) ذلك أنها توائم التفاصيل القائلة أن البيزنطيين قد زحفوا مدة ثمانية أيام (من القسطنطينية؟) لمواجهة الترك، ونتوافق مع حقيقة أن أعداداً كبيرة قد قيل إنها قد شاركت بالقتال، وهناك على كل حال إجماع على أن النص متشابك ومضطرب.

ويمكن أن نضيف ملاحظة أخرى: فقد ورد في مكان آخر أن بعض الحرس الإمبراطوري من القسطنطينية قد سقط في أيدي سيمون البلغاري، قبيل أمد وجيز من حملة المجر ضده، وهي الحملة التي تحدثنا عنها، وكان بين رجالات الحرس بعض الخزر، فقد جرت العادة على استخدامهم منذ وقت لابأس به[5]، وقد قيل أعاد سيمون بعضهم

---

(1) طبعة دي غويه: 180.

(2) انظر الفصل الثالث.

(3) يجعل زكي وليدي (Volkerschaften, 48) المدينة الإغريقية الكبيرة ولندر حصناً في الأبخاز.

(4) انظر ص642.

(5) انظر ما يلي 239.

إلى العاصمة البيزنطية بعدما جدعت أنوفهم[1]، ويبدو توضيحاً لهذا العمل الوحشي أنه رأى، أو بالحري رأى بعض ضباطه، أن وجود الخزر في خدمة البيزنطيين عملاً خيانياً، ويمكن أن يكون هذا هو واقع الحال، لو صح أن سيمون كان معه بالفعل قوات خزرية تقاتل ضمن جيشه، وذلك حسبما يستشف من رواية المسعودي.

وكما سلف بنا القول[2] يتبع ابن حوقل في روايته الاصطخري عن قرب إلى حد التشابه الحرفي، لكن من المفيد أن نذكر أن ابن حوقل قد أقحم القصة التالية بعدما أورد رواية الاصطخري عن حكام (قضاة) الخزر[3]، فقد قال:

«وربما جرى في أحكامه كالخرافة، ومنها ما حكاه المعتضد وقد ذكر بين يديه، فازدراه ذاكره فقال المعتضد: كلا إنه لمروي عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله جل اسمه لم يول رجلاً قوماً إلاّ وأيده بضرب من التسديد، وإن كان كافراً، ومن طريف ذلك أن رجلاً من أهل خزران[4] كان له ولد قد تصرف في التجارة، ومهر في الأخذ والعطاء، فأخرجه إلى بلغار الداخل ولم يزل يجهز عليه التجارة وتبنى بعد إخراج ابنه عنه عبداً كان له، فخرجه وبصره فحسنت بصيرته فيما ندبه له من التجارة حتى دعاه بالبنوة لقربه من طاعته وقلبه، وطالت غيبة الابن ومقام الغلام في خدمة الأب إلى أن هلك الرجل، وأقبل الابن على الجهاز ولم يعلم بموت أبيه، والغلام يحصل ما يرد عليه ولا يجهز عوضاً مما يرد إليه وكاتب الابن الغلام لينفذ إليه الجهاز على رسمه، فرد عليه الأمر بالقدوم عليه ليحاسبه عما بيده ويقبض منه ما لأبيه عنده، فورد على الابن ما أسرع به إلى مستقر أبيه من خزران وتنازعا الخصومة في ذلك والحجاج بالبينات، فكان إذا قام لأحدهما ما قد ظنه كافياً من الحجة، جاء الآخر من الشبهة بما وقف حاله وأكثر أحكامهم مبني على مثل ذلك.

وطال بهما التنازع حولاً كاملاً، وإذ طالت الخصومة وصارت الأمور في التشاجر والمنازعة إلى حال الوقوف إلى الملك للحكم بين الخصمين، فجلس لهم وأحضر جميع

---

(1) انظر مرقوارت: 521.

(2) انظر الفصل الخامس.

(3) ابن حوقل، ط. دي غويه: 279. . . ابن حوقل ط. كرمر: 391.

(4) المقصود الجزء الغربي من المدينة المزدوجة، انظر ما يلي.

الحكام[1] وأهل البلد وأعادوا دعواهما منذ ابتداء الخصومة، فلم يـر الملك لأحدهما على الآخر سبيلاً لتكافؤ البينات عنده، فقال الملك للابن: أتعرف قبر أبيك على الحقيقة؟ فقال: عرفته ولم أشهد دفنه فأحقه. فقال للغلام المدعي: أنت تعرف قبر أبيك؟ فقال: نعم أنا توليت دفنه، فقال عليَّ منه برمة إن وجدتموها، فأتى الغلام القبر فانتزع منه بعض عظامه البالية وجيء بها إليه فقال الغلام المدعي بنوة التاجر: افصد نفسك، ففصد ثم أمر فألقى دمه على العظم فتسرب الدم عنه ولم يعلق بشيء منه، وفصد الابن وطرح دمه على ذلك العظم فنشفه وعلق به، فأدب الغلام وعزره، ودفعه وماله إلى الابن»[2].

ومن الواضح أنه لدينا هنا نظام بدائي جداً من الأفكار، وكما هو الحال في حالات مشابهة، إذا كان هذا الوصف لا يمت بالواقع إلى مرحلة التطور الثقافي التي وصل إليها الخزر حتى عصر المعتضد (279 ـ 289هـ/ 892 ـ 902م) فإنه من الجلي يمثل ما اعتقده جيرانهم عنهم، وعلى افتراض أن القصة لها أساس من الصدق، فإنها تقوي الانطباع بالتفوق الذي شعر به العرب كأمة مثقفة أعلى بكثير من الخزر وتسوغه، زد على هذا فإنها تزودنا بما يفيد أن دولة الخزر كانت بعيدة عن كونها دولة أديرت حسب القواعد التي أرساها الخاخامات، حيث لا شك أنه لا يمكن أن ينسب إلى الخاخامات حكم كالذي عزي هنا إلى الملك.

وفي جميع الأحوال إن صحة بعض التفاصيل الواردة هنا موضع شك كبير، ولابد أن المعتضد ـ إذا صحت نسبة القصة إليه ـ قد سمعها عن طريق رواية من المرتبة الثانية، هذا وتتعارض فكرة مشاركة الملك المباشرة في إدارة الأحكام ـ مهما كان الأمر طبيعياً ـ مع ما ذكره الاصطخري، وضمنه ابن حوقل في روايته.

هذا ونجد في المقابل أن وجود القضاة أثناء تطور الخلاف لربما قد أقحم ولهذا قيل أنهم وجدوا مع أهل المدينة أثناء البت بالقضية، كما أنه لا يوجد ما لا يؤكد ما قاله المسعودي: جرت استشارة القضاة المسلمين في القضايا الصعبة وإن الفصل فيها جرى حسب الشريعة

---

(1) الذين من المفترض سمعوا المقدمات.

(2) الفكرة الأساسية في القصة هي أن الابن غير الحقيقي هو الذي لديه الاستعداد لكشف قبر أبيه.

الإسلامية[1]، ومن الممكن القول أن الملك (البك؟) تولى في بعض الحالات الاستثنائية البت بالقضايا، وقد عاش أصحاب الفعاليات الرئيسة في خزران، يعني في الجزء الأرستقراطي الواقع على الضفة الغربية للمدينة المزدوجة[2]، ولا يمكننا أن نستخلص أنهم كانوا يهوداً، لأنه تبعاً للاصطخري لم يعش جميع المسلمين على الضفة الشرقية بل معظمهم فعل ذلك، كما أنه في حكاية الابن الذي أرسل إلى داخل بلغاريا، ربما كان المقصود بذلك بلغاريا الحالية[3]، فلقد رأينا من خلال ما رواه المسعودي وجود تجار مسلمين على الحدود الشمالية للامبراطورية البيزنطية.

ووجدت رواية ابن حوقل صدى لها في كتاب «تحفة الألباب» لأبي حامد الأندلسي[4]، فقد تحدث في هذا الكتاب عن عيش ابنه الأكبر في بشغرد (بجغرد) وقال: إنه هو نفسه كان هناك سنة 575هـ/ 1150م[5]، ووصف كتاب أبي حامد على أنه رواية رحلة معدلة[6]، ومن الصعب ـ على كل حال ـ أن نوائم بين هذا الوصف وبعض المحتويات مثل قوله: يوجد في بشغرد ثمان وسبعون مدينة، كل منها عظيم ومزدهر، مثل بغداد، وأصفهان[7]، والمبالغة هنا شديدة جداً، حتى ولو أن بشغرد هنا هي هنغاريا، كما اقترح فرناند، وادعى أبو حامد في التحفة أنه سافر بشكل مكثف في البلاد الواقعة إلى الشمال من دار الخلافة «واجتاز من سخين (سقين) إلى بلاد الخزر، والترك، ثم إلى بلاد خوارزم شاه[8] ثلاث مرات[9]» وكان قرب روما[10]، لذلك أعطى وصفاً لها، لكن يبدو أن أبا

---

(1) اقتبس من قبل.

(2) من الممكن أن اسم خزران، مقر الملك، الذي أطلق أحياناً على عاصمة الخزر كلها، انظر الفصل الخامس الحاشية 16، هذا وترد كلمة خزران من جهة ثانية بصيغة الجمع الفارسية باستخدام (آن) للدلالة على الشعب (الفصل الأول) يعني مساوية لكلمة الخزر.

(3) مرقوارت: 517.

(4) تحقيق فرناند، المجلة الآسيوية 1925.

(5) فرناند: 194 ـ 195.

(6) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الذيل: 1/ 878.

(7) فرناند: 195.

(8) أو بالحري هذا اسم مكان هنا. انظر الفصل التاسع، الحاشية 59.

(9) فرناند 87.

(10) المصدر نفسه: 195.

حامد لم يتجاوز في رحلته أبعد من سورية والعراق، وهذا في حد ذاته فيه الكفاية لبعده عن مسقط رأسه في غرناطة.

ومن المؤكد أن كتاب «تحفة الألباب» يعطي الانطباع أنه يتألّف من مجموعة غير منسقة من المعلومات والروايات المثيرة جمعت من مصادر مبكرة، أو اخترعت اختراعاً، وعن وجود ابنه في بشغرد، سواء قصد بذلك هنغاريا أو بلاد البشكير في روسيا[1]، أو منطقة أخرى، لربما تشبه رحلته في كونها قصة مخترعة[2]، ومهما يمكن من أمر إن فرضية مرقوارت الذاهبة إلى أن رد يوسف قد اعتمد على ما جاء في تحفة الألباب، فرضية لا يمكن قبولها[3]، فهذا الكتاب قد كتب في سنة[4] 557هـ/ 1162م ولذا من البديهي إنه ليس مصدر الرد، الذي كان معروفاً ـ كما رأينا ـ في السنوات الأولى من القرن الثاني عشر، وذلك على أقل تقدير.

وقد أشرنا إلى الخزر الذين كانوا في خدمة الإمبراطورية البيزنطية الذين شوههم سيمون البلغاري، والحديث عن وجود حرس خزري في العاصمة البيزنطية قديم يرقى على الأقل إلى أيام ابن رسته، فقد جرى عرضهم هنا وهم متمركزون عند واحد من أبواب القصر الإمبراطوري، وهم يحملون قسياً في أيديهم[5]، وأشار ـ في مرحلة تالية ـ الإمبراطور قسطنطين مراراً إلى الحرس الخزري، فقد شكلوا مع رجال فرغانه وحدة صغيرة[6] مختارة كان كل واحد من رجالها يدفع مبلغاً لابأس به لحق التجنيد فيها[7]، وإنه لأمر مثير اجتماع الخزر ورجال فرغانة، لأننا نواجهه في سامراء[8]، ويخبرنا قسطنطين أن

---

(1) بروكلمان، المصدر نفسه.

(2) هنالك حاجة للبحث في جميع الكتب التي تحمل اسمه حتى تصبح أوضاع أبي حامد واضحة تماماً، وقد وعد بالقيام بهذا العمل الأستاذ غارسيا غومز من مدريد.

(3) مرقوارت: 10.

(4) بروكلمان المصدر السالف.

(5) ابن رسته: 120.

(6) De care, Aul. Byz, ed Bonn, 693.

(7) بري (الامبراطورية الرومانية المبكرة 228، الحاشية 5) وقد توصل إلى أن الخزري من الحرس قد دفع مبلغ 80، 302 دينار للقبول.

(8) راجع الفصل الثامن.

رجال الحرس الخزري كانوا يدعون مع رفاقهم من فرغانه ومن أماكن أخرى إلى عيد[1] الختانة، وكان للبلغار مكان التقدم في هذا العيد وعيد الفصح[2] على الخزر[3]، وهذا ومن المستبعد كثيراً أن يكون الخزر قد مارسوا اليهودية وهم في خدمة الإمبراطور.

ويمكن أن نختم هذا الفصل بالحديث عن بعض خصوصيات علاقات الخزر برئاسات اليهود في العراق (أو بابل) كما يدعوها كتاب اليهود، فقد جاء في رد يوسف قوله «حتى آخر العلامات - أي حتى ظهور المسيح المنتظر - سيظل الخزر، ينظرون إلى مولانا الرب وإلى حكماء بني إسرائيل في معاهد القدس وبابل»[4]، بيد أنه على الرغم من ذلك، من الصعب علينا أن نظهر أن مملكة الخزر قد دخلت في نطاق سلطان رأس الجالوت، وقد وجد الرحالة بنيامين التطيلي (حوالي 1170م) بعض الخزر في كل من القسطنطينية والإسكندرية[5]، لكن ليس لديه ما يقوله عن مملكة الخزر ككل، وهو دليل على أن المملكة لم تكن باقية بالوجود آنذاك، وذلك حسب رأي أدلر[6]، وكان من أسباب رحلته إيجاد مأوى لليهود، وعندما تحدث عن «جميع أراضي الترك (توغرميم) مع اللان وجرجان كرعية تدار من قبل رأس الجالوت» من الصعب القول إن في هذا إشارة إلى يهود الخزر أيضاً.

ومن جانب آخر يروى أن الحاخام بتحيا[7] (حوالي 1185) قد رأى في بغداد رسلاً أرسلوا من قبل شعب من شعوب الشمال كان يعرف باسم «مشيس» أو «مغوغ» كان قد تحول إلى اليهودية، وكانت له اتصالات مع رأس الجالوت، وقد رحب هذا الشعب بفقراء العلماء

---

(1) المصدر نفسه: 749.

(2) المصدر نفسه: 772.

(3) يقدم ابن رسته (124) وصفاً غريباً للعرض للرسمي للامبراطور أثناء ذهابه إلى كنيسة آيا صوفيا، حيث تبعاً له صحبه ألف غلام من الترك والخزر يرتدون الدروع المذهبة ويحملون السيوف المذهبة والترسة. انظر مرقوارت: 219.

(4) كوكوفتسوف (المدخل) حيث لاحظ أن الأكاديمية في سورا استمرت تعمل حتى حوالي سنة 943 - 953، ، وبناء عليه هنالك أكاديمية بابلية واحدة فقط معروضة في رد يوسف (النص القصير).

(5) انظر الفصل الثامن، الحاشية 64.

(6) بنيامين التطيلي، تحقيق أدلر، المقدمة: 12.

(7) تحقيق بنيش، لندن 1856: 46...

ليتولوا تعليم أولادهم التوراة والتلمود[1]، ومع أن المقصود هنا لم يكن الخزر أبداً، لكن كلا من «مشيس[2] ومغوغ» كانت لهما علاقاتهما مع الخزر، وقد ذكر الحاخام بتحيا مملكة الخزر بشكل متميز، لكنه لم يتحدث عنها أكثر من قوله: إنه اجتاز بلادها خلال ثمانية أيام، وسمع عويل النساء ونباح الكلاب، هذا وهنالك دليل في المصادر العبرية يبرهن على أن الخزر كانوا معروفين بالعراق، ومن المؤكد أن سعديا غاؤن (892 ـ 942) كان على بينة بوجودهم وقد ذكرهم أكثر من مرة[3]، وقد أوضح أن عبارة «حيرام ملك صور» ليست اسماً شخصياً، بل لقباً «مثل الخليفة بالنسبة لحاكم العرب، وخاقان بالنسبة لملك الخزر»[4]، وأشار سعديا أثناء وضعه لبعض التعليقات على نصوص توراتية[5]، إلى عادات ذكروها له عن ملوك الخزر، من ذلك أنه عندما يقدم رجل ما على تنفيذ أمر صدر إليه لا يخبر الملك بذلك حتى يصدر إليه أمراً جديداً، وأتى بتحيا ثانية في بعض ردوده على ذكر رجل اسمه اسحق بن إبراهيم، ويبدو أنه كان قد ذهب من العراق إلى مملكة الخزر واستقر هناك، وفي نص لدى يافث بن علي البصري (كان موجوداً في 950 ـ 980)، وكان من القرائين ترجمت كلمة «ممزير» إلى «مدعي» والمدهش أنها أوضحت بتطبيقها على الخزر «الذين أصبحوا يهوداً»[6]، ونجد لدى آخر من القرائين اسمه يعقوب بن روبن (قرن حادي عشر) إشارة إلى تحول الخزر إلى اليهودية وأنهم يشكلون «أمة واحدة، لم تحمل نير الشتات، بل فيها محاربون كثر لا يدفعون الجزية إلى أي من الأمم»[7]، زد على هذا أن و. بشير[8] يعتقد أنه قد وقف على إشارة تحول ملك الخزر في

---

(1) ورد ذكر العلماء الذاهبين إلى مصر بشكل خاص.

(2) بالنسبة إلى مشيخ = سقسين انظر الفصل التاسع. ويتحدث بتحيا أيضاً عن بلاد قيدار شرقي الدينبر، ولعل الذي حدث في الحالتين استخدام تعسفي للأسماء التوراتية مثلاً سفارد = إسبانيا.

(3) انظر هاركفي مجلد ذكرى كهوت: 244.

(4) ذكر هاركفي أنه رأى ذكر الخاقان الخزري لدى البيروني (كتابه السالف: 245) إنني لا أعرف النص الذي أشار إليه.

(5) الخروج: 19/ 9.

(6) أيام السبي، هذا ما أضافه المصنف قاصداً أن ذلك وقع منذ زمن طويل.

(7) أخذت هذين المصدرين من مقال هاركفي نفسه.

(8) دورية الدراسات اليهودية 20 (1889): 144 ـ 146.

الكتاب المدراشي تانا دي ـ بي ـ إيليا Tanna d'Be Elyah (إيلياراباه Eliyah Rabbah) وهو كتاب يعود في تاريخه إلى حوالي سنة 974م[1].

إن ما تقدمه النصوص العبرية قليل، وما من واحد من هذه النصوص يخبرنا بالشكل القاطع أن الخزر قد أصبحوا تحت إشراف المنظمة اليهودية المركزية، وقد عرضوا وكأنهم بعيدون جداً عن مراكز اليهودية، قليل هو المعروف عنهم، بحيث لم يتعد ذلك ملاحظة عابرة أو رأياً منقولاً، ومن الصعب القول إن البعد وحده هو الذي تحكم بموقف السلطات اليهودية كما تعكسه الأدبيات المتوفرة لنا، لقد كمن الإهمال اليهودي الرسمي للخزر ـ في جزء منه على الأقل ـ في عدم تمسكهم الكامل باليهودية وتطبيقهم لتعاليمها.

(1) من المدهش أن دروثمار الكاتب اللاتيني المبكر المتخصص باليهودية لدى الخزر (الفصل السادس) تقدم على هذه المصادر جميعاً بسنين عديدة.